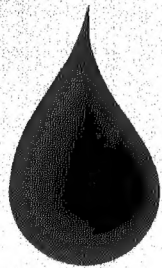


إمبيل ناصيف

الأزواج ما قبل الزواج



دار الجيد
بيروت

0161085



Bibliotheca Alexandrina

الأزواجُ ما قيد
في
الرشاء

الأرواحِ مارقية
في
الرشاش

إعداد
إميل ناصيف

دار الجيعة
بيروت

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية

المقدمة

الرثاء فنٌّ من فنون الشعر الغنائي يُعبّر فيه الشاعر عن حزنه وتفجّعه لفقدانٍ حبيب. وهو يتلونّ بألوان مختلفة تبعاً للطبيعة والمزاج والمواقف، فإذا غلب عليه البكاء على الرّاحل، وبثّ اللوعة والحزن، كان ندياً، وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتّع بها الفقيد في حياته، كان تأبيناً. وإذا غلب عليه التأمل في حقيقة الموت والحياة كان عزاءً. وقد يجتمع الندب والتأبين والعزاء في القصيدة الواحدة.

والرثاء يقترن بالموت، وليس في العالم أمة لم تعرف الرثاء، كما أنه ليس فيه أمة لم تعرف الموت، فالرثاء وُجد عند كلّ الأمم والشعوب باديةً وراقيةً متحضرةً.

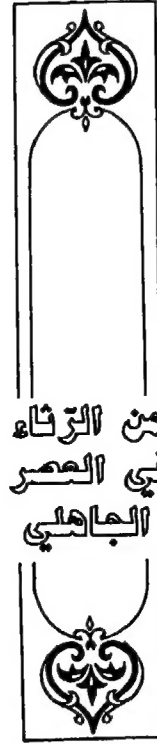
وعرف أدبنا الرثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كانت النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مُؤننين لهم مُثنين على خصالهم. وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأنّ ذلك مصيرٌ محتوم.

وأشهر شعراء الرثاء في الأدب العربيّ المهلهل والخنساء في العصر الجاهليّ، وحسان بن ثابت ومنتهم بن نويرة في عصر صدر الإسلام، وجريّر في العصر الأمويّ، والمنتبيّ وابن الروميّ وأبو تمام في العصر العباسيّ، والأخطل الصّغير، وحافظ إبراهيم في العصر الحديث.

وقد أثبتت في كتابي هذا أروع ما وجدته لهؤلاء الشعراء من قصائد
الرثاء، وضممت إلى هذه القصائد أخوات لها لشعراء آخرين لم يقلوا جودةً
في رثائهم عن الشعراء الخالدين الذين سبق ذكرهم.

وأمل أن تُعجب هذه الباقية من قصائد الرثاء التي اخترتها القراء
الأعزاء، فأكون قد وُفِّقت في عملي، وإلا فحسبي أنني حاولت، والله وليّ
التوفيق.

المؤلف



من الزناء
في العصر
الجاهلي

المهلهل

هو عدي بن ربيعة التغلبي، وخال الشاعر امرئ القيس، لُقّب بالزُّير لكثرة مجالسته النساء. كان يقضي أيامه في اللهو وشرب الخمر. وكان له أخ اسمه وائل، ولقبه كليب، وامرأته جليلة بنت مرّة الشيباني من بكر، وكان لمرّة عشرة بنين أصغرهم جسّاس. وحدث يوماً أن نزلت خالة جسّاس، واسمها البسوس، على جسّاس، فرمى كليب ناقتها وفصيلها بقوسه، فقتل الفصيل، وراحت الناقة تعجّ. فلما رأتها البسوس صاحت: «واذلاه». فقال لها جسّاس: اسكتي، فلكِ بناقتكِ ناقةٌ أعظم منها». فأبت إلاّ رأس كليب. فقتل جسّاس كليياً، وهبّ المهلهل يطلب ثأر أخيه، ونشبت الحرب بين بكر وتغلب، فدامت أربعين سنة ودُعيت حرب البسوس. وقد أبدى المهلهل في تلك الحرب شجاعة نادرة، وأسير في آخر الأمر، ومات في أسره سنة ٥٣١ م.

للمهلهل ديوان شعر أهمّ ما فيه رثاؤه لأخيه كليب. ورثاؤه مزيج من دمع وحرب، من عاطفة رقة تنبعث من قلب محبّ، وعاطفة خشونة تنبعث من حالة البراءة والفترة.

رثاء كليب

أهَاجَ قَدَاةَ عَيْنِي الْأَذْكَارُ
هُدُوءًا فَالِدُمُوعُ لَهَا انْجِدَارُ^(١)
وصَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلًا عَلَيْنَا
كَأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ لَهُ نَهَارُ
وَبِتُّ أَرَايْبُ الْجَوْزَاءِ حَتَّى
تَقَارَبَ مِنْ أَوَائِلِهَا أَنْحِدَارُ^(٢)
أَصْرَفْتُ مُقْلَتِي فِي إِثْرِ قَوْمٍ
تَبَايَنَتِ الْبِلَادُ بِهِمْ فَغَارُوا^(٣)
وَأَبْكِي وَالنَّجُومُ مُطْلَعَاتُ
كَأَنَّ لَمْ تَحْوِهَا عَنِّي الْبَحَارُ
عَلَى مَنْ لَوْ نُعِيتُ وَكَانَ حَيًّا
لَقَادَ الْخَيْلَ يَحْجُبُهَا الْغُبَارُ
دَعَوْتُكَ يَا كَلِيبُ فَلَمْ تُجِبْنِي
وَكَيفَ يُجِيبُنِي الْبَلَدُ الْقِفَارُ
أَجِبْنِي يَا كَلِيبُ خَلَكَ دَمٌ
ضَمِينَاتُ النُّفُوسِ لَهَا مَزَارُ
أَجِبْنِي يَا كَلِيبُ خَلَكَ دَمٌ
لَقَدْ فُجِعَتْ بِقَارِسِهَا نِزَارُ

(١) القداة: ما يخرج من العين الرمضاء. هُدوءاً: في هدأة الليل، سكونه.

(٢) الجوزاء: برج في السماء.

سَقَاكَ الْغَيْثُ إِنَّكَ كُنْتَ غَيْثًا
وَيُسْرًا حِينَ يُلْتَمَسُ الْيَسَارُ
أَبَتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ أَنْ تَكْفُفَا
كَأَنَّ غَضَى الْقَتَادِ لَهَا شِفَارُ^(١)
وَأَنَّكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجَالٍ
وَتَعْفُو عَنْهُمْ وَلَكَ آقْتِدَارُ

المهلهل

(١) الغَضَى: نوع من الشجر. القَتَاد: الشوك. الشِفَار: منابت أهداب العين.

الخنساء

هي أم عمرو بنت عمرو بن الشريد السلمية الملقبة بالخنساء. ولدت نحو سنة ٥٧٥ م، ونشأت في بيت ثروة وجاه. وكان لها أخوان: معاوية وصخر، وكان صخر يعطف عليها بنوع خاص، فقتلا كلاهما. وكان لمقتلهما صدى بعيد في نفسها، فبكت حتى تقرحت مقلتاها، بل حتى عميت، وذاب قلبها التياغاً، ورثتهما بشعر رقيق، وحصت صخرًا بالقسم الأكبر منه. وقد أدركت الإسلام فاعتنقته مع بنيتها، وكانت وفاتها سنة ٦٦٤ م.

لها ديوان شعر كله في رثاء أخويها، ولا سيما صخر، يشعر من يقرأه أنه في ماتم يسمع فيه عويل النائحات، وندب النادبات. هو ديوان امرأة أصيبت في الصميم، وفقدت من تحب ومن كان للحرب سيفاً بتاراً، وللمجالس سيداً مختاراً، وللقرى والضيافة نحراراً، وللنجدة فارساً مغواراً. وهي، في رثائها، تتمثل أبدأً أخاها وتخاطبه، وتصوره بحب أخوي صادق، وتبكي ولا تمل من مخاطبة العينين تسألهما الدمع، والعينان تجيبان، وإذا الدمع نار في هشيم، وإذا اللوعة أبدأً في ازدياد. وفيما يلي بعض النماذج من رثائها.

رثاء صخر

يُورِّقُنِي أَلْتَذَكُرُ حِينَ أُمْسِي
فَأُصْبِحُ قَدْ بُلَيْتُ بِفَرْطِ نُكْسِ
عَلَى صَخْرٍ، وَأَيُّ فَتَى كَصَخْرٍ
لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَطِعَانِ خَلْسِ^(١)؟
فَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ رُزْءًا لِجِنِّ،
وَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ رُزْءًا لِإِنْسِ^(٢)
يَذَكِّرُنِي طُلُوعَ الشَّمْسِ صَخْرًا
وَأَذَكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ
وَلَوْلَا كَثْرَةُ أَلْبَاكِينَ حَوْلِي
عَلَى إِخْوَانِهِمْ، لَقَتَلْتُ نَفْسِي!
وَلَكِنْ لَا أَرَى عَجُولًا
وَيَاكِيَةً تَنُوحُ لِيَوْمِ نَحْسِ^(٣)
أَرَاهَا وَإِلَهَا تَبْكِي أَخَاهَا
عَشِيَّةَ رُزْئِهِ، أَوْ غِبَّ أَمْسٍ
وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أُخِي، وَلَكِنْ
أُعْزِي النَّفْسَ عَنْهُ بِأَلْتَأْسِي^(٤)
فَلَا، وَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ حَتَّى
أَفَارِقَ مُهْجَتِي وَوَشَقَّ رَمْسِي

(١) طعان خلس: أي طعان فيه إعجال وشجاعة وحذر.

(٢) الرزء: المصيبة.

(٣) العجول: الثكلى الشديدة الحزن من النساء.

(٤) التأسي: التصبر.

فَقَدْ وَدَّعْتُ، يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ
أَبِي حَسَّانَ، لَذَائِي وَأُنْسِي
فِيَا لَهْفِي عَلَيْهِ وَلَهْفَ أُمِّي
أُضِيحُ فِي الضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمْسِي!

قَدْى بَعِينِكَ

قَدْى بَعِينِكَ أُمُّ بِأَلْعَيْنِ عُوَّارُ أُمُّ
ذَرَفْتُ أَنْ خَلْتُ مِنْ أَهْلِهَا أَلْدَارُ؟^(١)
كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ، إِذَا خَطَرْتُ
فَيْضُ يَسِيلُ عَلَى أَلْخَدَيْنِ، مِذْرَارُ
تَبْكِي لِصَخْرٍ، هِيَ أَلْعَبْرَى، وَقَدْ وَدَّ
هَتْ وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أَسْتَارُ^(٢)
تَبْكِي خُنَاسُ، فَمَا تَنْفَكُ، مَا عَمَرْتُ،
لَهَا عَلَيْهِ رَنِينُ، وَهِيَ مِفْتَارُ^(٣)
تَبْكِي خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ، وَحَقُّ لَهَا،
إِذْ رَابَهَا أَلْدَهْرُ إِنَّ أَلْدَهْرَ ضَرَارُ
لَا بُدَّ مِنْ مَيْتَةٍ فِي صَرْفِهَا غَيْرُ
وَأَلْدَهْرُ فِي صَرْفِهِ حَوْلُ وَأَطْوَارُ^(٤)

(١) العوار: رمد العين. أن خلت: أي لأن خلت.

(٢) العبْرَى: التي لا تجف دموعها. ولهت: اشتدَّ جزعها. الأستار: طبقات التراب فوق الميت.

(٣) المفتار: المنكسرة.

(٤) في صرفها: في حدوثها وتصرفها. غير الدهر: نوابه. الحول: التحول.

قَدْ كَانَ فِيكُمْ أَبُو عَمْرٍو يَسُودُكُمْ
 نَعْمَ الْمَعَمَّمُ، لِلدَّاعِينَ نَصَارُ^(١)
 صُلبُ النَّحِيْزَةِ، وَهَابٌ، إِذَا مُنِعُوا
 وَفِي الْحُرُوبِ جَرِيءُ الصُّدْرِ مَهْصَارُ^(٢)
 يَا صَخْرُ وَرَادَ مَاءٍ قَدْ تَنَادَرَهُ
 أَهْلُ الْمَوَارِدِ، مَا فِي وَرْدِهِ عَارُ^(٣)
 مَشَى السَّبْنَتَى إِلَى هَيْجَاءِ مُعْضَلَةٍ
 لَهُ سِلَاحَانِ: أَنْيَابٌ وَأُظْفَارُ^(٤)
 وَإِنْ صَخْرًا لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا
 وَإِنْ صَخْرًا، إِذَا نَشْتُو، لَنَحَارُ^(٥)
 وَإِنْ صَخْرًا لِمِقْدَامٍ إِذَا رَكِبُوا
 وَإِنْ صَخْرًا، إِذَا جَاعُوا، لَعَقَارُ^(٦)
 أَغْرُ أَبْلَجٌ، تَأْتُمُ الْهُدَاةَ بِهِ
 كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ^(٧)

(١) المعمم: المسود.

(٢) النحيزة: الطبيعة. المهصار: الكثير الدق للأعناق.

(٣) وزاد ماء: أرادت إقدامه على الموت. تناذره: أنذر بعضهم بعضاً بصعوبته وهوله. أهل
الموارد: أي الأبطال.

(٤) السبنتى: النمر. الهيجاء المعضلة: الحرب الشديدة.

(٥) نشتو: ندخل في الشتاء.

(٦) العقار: من عقر الإبل أي حصد قوائمها بالسيف لكيلا تشرد وقت النحر.

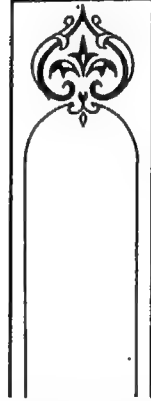
(٧) الأغر: الكريم والشريف. الأبلج: المشرق الوجه.

جَلْدٌ، جَمِيلٌ الْمُحَيَّا كَامِلٌ وَرِعٌ
وَلِلْحُرُوفِ، غَدَاةَ الرَّوْعِ، مِسْعَارُ^(١)
حَمَّالُ الْوَيْةِ، هَبَّاطُ أُودِيَّةِ
شَهَادُ أَنْدِيَّةِ، لِنَجِيشِ جَرَّارُ
وَلَا تَرَاهُ، وَمَا فِي الْبَيْتِ، يَأْكُلُهُ
لَكِنَّهُ بَارِزٌ بِالصَّحْنِ مِهْمَارُ^(٢)
قَدْ كَانَ خَالِصَتِي مِنْ كُلِّ ذِي نَسَبٍ
فَقَدْ أُصِيبَ، فَمَا لِلْعَيْشِ أَوْطَارُ^(٣)

(١) الجلد: الصبور. الورع: المجنب لما فيه إثم. الروع: الخوف والحرب. المسعار: موقد نار الحرب.

(٢) المهمار: الكثير البذل.

(٣) خالصتي: من يخلص الي المودة.



من التراث
في العصر
الإسلامي
والأموي



متمم بن نويرة

هو متمم بن نويرة بن جمرة اليربوعي التيمي (. . . - نحو ٣٠ هـ / نحو ٦٥٠ م) شاعر فحل، صحابي، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام. قُتل أخوه مالك في حرب الردة، فرثاه رثاءً حاراً، وظلَّ يبكيه حتى ابيضت عيناه من الحزن، وحتى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له، وصار ندبه لأخيه مصير الأمثال، ومن بديع قوله فيه:

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ
صَدِيقِي لَتَذُرَافِ الدَّمُوعِ السُّوَاغِ
يَقُولُ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ
لِقَبْرِ نَوَى بَيْنِ اللَّوَى فَالدُّكَاكِ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الشُّجَى يَبْعَثُ الشُّجَى
فَدَعْنِي، فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرٌ مَالِكِ

* * *

أَبَى الصَّبْرَ آيَاتُ أَرَاهَا وَإِنِّي
أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا^(١)

(١) أقطع: مقطوع.

وَإِنِّي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِيبُ
 وَكُنْتَ حَرِيًّا أَنْ تُجِيبَ وَتَسْمَعَا
 تَحِيَّتُهُ مِنِّي وَإِنْ كَانَ نَائِيًّا
 وَأَنْسَى تُرَابًا فَوْقَهُ الْأَرْضُ بَلْقَعَا^(١)؛
 فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا
 فَقَدْ بَانَ^(٢) مَحْمُودًا أَحِي جِينِ وَدَّعَا
 وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَدِيمَةَ حِقْبَةَ
 مِّنَ الدُّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَّصِدَعَا^(٣)
 فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَانِي وَمَالِكَا
 لِيَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
 وَلَوْ أَنَّ مَا أُلْقَى أَصَابَ مُتَالِعَا
 أَوْ الرُّكْنَ مِّنَ سَلْمَى إِذْ لَنْ تَضَعُصَعَا^(٤)

(١) بلقع: أرض قفر.

(٢) بان: فارق.

(٣) جديمة هو جديمة الأبرش نادم مالكا وعقيلاً ابني فارح بن كعب ثم قتلها. يتصدعا: يتفرقا.

(٤) متالع وسلمى: جبلان.

حسان بن ثابت الأنصاري

هو حسان بن ثابت الأنصاري (. . . - ٥٤ هـ / ٦٧٤ م) الصحابي، شاعر النبي ﷺ. عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام. قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمانيين في الإسلام. من أهم قصائده تلك التي رثى بها الرسول ﷺ، وفيما يلي بعض أبياتها:

رثاء الرسول

بَطِيئَةَ رَسْمٍ لِلرُّسُولِ وَمَعَهْدُ
مُنِيرٍ وَقَدْ تَعَفُّو الرُّسُومَ وَتَهَمَدُ (١)
وَلَا تَنَّمِحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ (٢)

(١) طيبة: هي مدينة النبي، وهو، صلوات الله عليه، الذي سماها بذلك. المعهد: المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه. الهمود: البلى في كل شيء.
(٢) الآيات: جمع آية وهي العلامة، وقوله «الذي كان يصعد» أي المنبر الذي كان يصعده الهادي صلوات الله عليه.

وَوَأَضِيحُ آيَاتٍ وَبَاقِي مَعَالِمٍ
 وَدَبَّعَ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدٌ
 بِهَا حُجْرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا
 مِنْ أَللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ^(١)
 مَعَالِمٌ لَمْ تُطْمَسَ عَلَى الْعَهْدِ آيَهَا
 أَتَاهَا أَلْبَلَى فَلَآئِي مِنْهَا تَجَدُّدٌ^(٢)
 عَرَفْتُ بِهَا رَسَمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ
 وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدٌ
 ظَلَمْتُ بِهَا أَبْيَا الرَّسُولِ فَأَسْعَدْتُ
 عَيْونَ وَمِثْلَاهَا مِنْ أَلْجَفْنِ تُسْعِدُ^(٣)
 تَذَكَّرُ آلَاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى
 لَهَا مُحْصِباً نَفْسِي فَنَفْسِي تَبْلُدُ^(٤)
 مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ
 فَظَلَّتْ لِآلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدُّ^(٥)

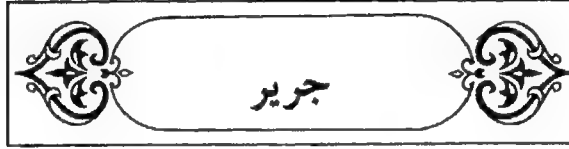
- (١) الحجرات: جمع حجرة يعني مساكن السيد الرسول.
- (٢) لم تطمس: لم تتغير. آيها: أي إن آياتها لا تزال على ما تعهد. الآي منها تجدد: أي تتجدد، ولعل المراد بالآي هنا آيات الذكر الحكيم.
- (٣) فأسعدت عيون: أي فأعانتني عيوني وساعدتني فأنتني بالدموع لمكان اللوعة مني. وقوله «ومثلاها من الجفن» جفن العين غطاء العين من أعلى وأسفل، والمراد بالجفن هنا العين نفسها. يقول: ومثل عيني تواتي بالدمع.
- (٤) فوله «تذكر» بحذف إحدى التامين: أي تتذكر، والفاعل قوله: «نفسى». وقوله «تبلد» إنما هو تتبلد بحذف إحدى التامين كذلك، وتبلى: أي تلحقها حيرة، والتبلى أيضاً نقيض التجلى، وهو استكانة وخضوع.
- (٥) مفجعة: يقال فمجعت المصيبة وفمجتته: أوجعته فهو مفجع أي مروع، والفاجعة الرزية =

وَمَا بَلَغْتَ مِنْ كُلِّ أَمْرِ عَشِيرَةٍ
وَلَكِنَّ نَفْسِي بَعْضَ مَا فِيهِ تَحَمُّدٌ^(١)
أَطَالَتْ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهْدَهَا
عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
فَبُورِكَتْ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ
بِلَادُ نَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ^(٢)

=الموجعة التي تفجع الإنسان بما يعزّ عليه من مال أو حميم . شفّه عليه الحزن والهمّ : لذع
قلبه وأضمّره وهزله حيث رقّ . وهو من قولهم شفّ الثوب إذا رقّ حتى يصف جلد لابس
تعّدّ مضارع عدد أي عدّ .

(١) العشير: في الأصل كالعشر: الجزء من أجزاء العشرة، وجمع العشير أعشراء مثل نصيب
وأنصباء وقوله بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر.

(٢) المسدّد: يُقال سدّده الله وفقه للسداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل .



هو أبو حرزة جرير بن عطية (٣٣ هـ / ٦٥٣ م - ١١٤ هـ / ٧٣٣ م) اشتهر بالهجاء، وراح يرمي به الخصوم قوياً شديداً للهجة، فذاع صيته، ورددت اسمه الركان. نُشبت بينه وبين الفرزدق حرب هجائية دامت خمسين سنة، كان الشاعر منهما ينظم القصيدة ويبعث بها إلى خصمه، فينقض الخصم ما قيل فيها بقصيدة ينظمها على الوزن نفسه، والقافية نفسها. وسميت تلك القصائد «النقائض».

له ديوان شعر في المدح، والرثاء، والغزل، والهجاء. ورثاء جرير سواء أكان في ذويه أم في غيرهم، هو رثاء من يشعر بالمصيبة شعوراً عميقاً، فينهّد لها كيانه، ثم يطلق اللسان فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمان النفس، والألفاظ أنفاس حارة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة، في انسجام، وسهولة، ورقة؛ وإذا أمامك مشهد مؤلم، هو مشهد تراءى فيه ذكريات الرجل أحبةً وصفاتٍ محببةٍ إلى كل نفس، وأعمالاً غراء؛ وإذا الشاعر ينطلق بين المناجاة، والنداء، ومخاطبة الميت، والأخبار، رائع الأسلوب، عجيب السلاسة؛ وإذا الزفرات المتصاعدة أدعيةً واستلفاتاً تقف بين المقطع والمقطع، وبين الفكرة والفكرة، شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

ومن قصيدة طويلة وجهها إلى خصمه الفرزدق هاجياً، افتتحها برثاء امرأته، فقال:

رثاء امرأته

لَوْلَا الْحَيَاءُ، لَعَادَنِي أَسْتِعْبَارُ،
وَلَزُرْتُ بَيْتَكَ، وَالْحَبِيبُ يُزَارُ^(١)
وَلَقَدْ نَظَرْتُ، وَمَا تَمَتُّعُ نَظْرَةً
فِي اللَّحْدِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الْمُحْفَارُ^(٢)
وَلَهَتْ قَلْبِي، إِذْ عَلَتْنِي كَبْرَةٌ،
وَذُوو التَّمَائِمِ مِنْ بَنِيكَ صِلَاغَارُ^(٣)
أَزَعَى النُّجُومَ، وَقَدْ مَضَتْ غُورِيَّةُ،
عُصْبُ النُّجُومِ كَأَنَّهُنَّ صُورَارُ^(٤)
نِعَمَ الْقَرِينِ، وَكُنْتَ عِلْقَ مَضْنَةٍ
وَأَرَى بِنَعْفِ بُلْيَةِ الْأَحْجَارُ^(٥)
عَمَرْتَ مُكْرَمَةَ الْمَسَاكِ وَفَارَقْتَ
مَا مَسَّهَا صَلْفٌ وَلَا إِفْتَارُ^(٦)

(١) استعمار: بكاء. بيتك: قبرك.

(٢) المحفار: آلة الحفر.

(٣) ولهة: حزينة أشد الحزن. التمايم ج تيمة وهي خرزة أو عودة تُعلق في عنق الولد د للأخطار.

(٤) الغورية: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط. العصب: الجماعات. الصوار: قطع الوحش.

(٥) العلق: النفيس من كل شيء. المضنة: ما يضمن به. النعف: أسفل الجبل وأعلى الوادي؛ بلية: اسم موضع.

(٦) الصلف: الكبرياء. الافتار: العسر.

فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ، بِرُقَّةٍ ضاحِكِ
 هَزِيمٍ أَجَشٍّ، وَدِيمَةً مِذْرَارُ^(١)
 هَزِيمٍ أَجَشٍّ، إِذَا اسْتَحَارَ بِبَلْدَةٍ
 فَكَانَمَا بِجَوَائِهَا الْأَنْهَارُ^(٢)
 مُتْرَاكِمٍ رَجُلٍ يُضِيءُ وَمِيضُهُ
 كَالْبَلْقِ تَحْتَ بَطُونِهَا الْأَمْهَارُ^(٣)
 كَانَتْ مُكْرَمَةً الْعَشِيرِ وَلَمْ يَكُنْ
 يَخْشَى غَوَائِلَ أُمَّ حَزْرَةَ جَارُ^(٤)
 وَلَقَدْ أَرَاكَ كُسَيْبِ أَجْمَلٍ مَنْظَرٍ،
 وَمَعَ الْجَمَالِ سَكِينَةَ وَوَقَارُ
 وَالرِّيحُ طَيِّبَةٌ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا
 وَالْعِرْضُ لَا دَنْسٌ وَلَا خَوَارُ^(٥)
 وَإِذَا سَرَيْتُ، رَأَيْتُ نَارَكَ نَوْرَتْ
 وَجْهًا أَغْرُ، يَزِينُهُ الْإِسْفَارُ
 صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تُخَيَّرُوا
 وَالصَّالِحُونَ عَلَيْكَ، وَالْأَبْرَارُ

(١) الصدى: كان العرب يعتقدون بأنه يخرج من رأس القنبل طير يسمونه «صدي» يظل عطشان يصبح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. الهزم: السحاب الواعد. الأجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.

(٢) الجواء ج جو وهو الناحية والجهة.

(٣) روجل: ذو جلبه، البلق ج أبلق وهو ما كان في لونه سواد وبياض.

(٤) الغوائل: المصائب.

(٥) الخوار: الضعيف.

وَعَلَيْكَ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكَ كُلَّمَا
 نَصَبَ الْحَجِيجُ مُلَبِّدِينَ، وَعَارُوا^(١)
 يَا نَظْرَةً لَكَ، يَوْمَ هَاجَتْ عَبْرَةٌ
 مِنْ أُمَّ حَزْرَةَ، بِالنَّمِيرَةِ دَارُ
 نُحْيِي الرُّوَامِسُ رُبْعَهَا، فَتُجِدُهُ
 بَعْدَ الْبَلَى، وَتُمِيتُهُ الْأَمْطَارُ^(٢)
 وَكَأَنَّ مَنَزِلَةً لَهَا، بِحُلَاجِلِ
 وَحْيِ الزُّبُورِ تُجِدُهُ الْأَخْبَارُ^(٣)
 لَا تُكْثِرَنَّ، إِذَا جَعَلْتَ تَلُومُنِي،
 لَا يَذْهَبَنَّ بِجِلْمِكَ الْإِكْثَارُ
 كَانَ الْخَلِيطُ هُمُ الْخَلِيطُ، فَأَصْبَحُوا
 مُتَبَدِّلِينَ، وَيَالِدِيَارِ دِيَارُ
 لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا
 لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ!

رثاء ابنه

[وقال يرثي ابنه سواده وقد توفي بالشام]:

قَالُوا: نَصِيئِكَ مِنْ أَجْرِ فَقُلْتُ لَهُمْ
 مَنْ لِلْعَرِينِ، إِذَا فَارَقْتُ أَشْبَالِي؟

(١) نصب: تعب. الحجيج ج حاج. ملبدين: مقيمين. غار الرجل: نام.

(٢) الروامس: الرياح.

(٣) الزبور: المزامير. تجده: تكتبه فتحكمه.

لَكِنْ سَوَادَةٌ يَجْلُو مُقَلَّتِي لَحْمٍ
بَازٍ، يُصْرَصِرُ فَوْقَ الْمَرْقَبِ الْعَالِي (١)
قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنِّي، إِذَا غَلِقْتُ
رُهْنُ الْحَيَادِ، وَمَدَّ أَلْغَايَةَ الْعَالِي (٢)
إِلَّا تَكُنْ لَكَ بِالذَّيْرَيْنِ بَاكِئَةً
فَرُبُّ بَاكِئَةٍ بِالرَّمْلِ مِعْوَالٍ
كَأَمِّ بَوِّ عَجُولٍ، عِنْدَ مَعْهَدِهِ،
حَنْتُ إِلَى جِلْدٍ مِنْهُ وَأَوْصَالٍ (٣)
تَرْتَأَعُ مَا نَسَيْتُ، حَتَّى إِذَا ذَكَرْتُ، رُدَّتْ
هَمَاهِمٌ، حَرَى الْجَوْفِ، مِثْكَالٍ (٤)
زِدْنَا عَلَى وَجْدِهَا وَجِدَاءً، وَإِنْ رَجَعْتُ،
فِي الْقَلْبِ مِنْهَا خُطُوبٌ ذَاتُ بَلْبَالٍ (٥)
فَارَقْتَنِي، جِئِنَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصْرِي،
وَجِئِنَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي (٦)
إِنَّ الشَّوْيَ يُذِي الزُّيْتُونَ، فَأَخْتَسِي،
قَدْ أَسْرَعَ الْيَوْمَ فِي عَقْلِي وَفِي حَالِي (٧)

- (١) باز لحم: يأكل اللحم أو يشتهيهِ. صرصر البازي: صات. المرقب: الموضع المشرف يعلوه الرقيب.
- (٢) غلق الرهن: صار ملك المرتهن.
- (٣) البو: ولد الناقة، إذا مات يجشى جلده تبناً فيقرب من أمه، فتخدع وتعطف عليه وتدرّ. الجلد بفتح الجيم واللام: الجلد بكسر الجيم وسكون اللام.
- (٤) الهمام: الأصوات مع بحّة. الميثكال: الكثيرة الشكل.
- (٥) البلبال: الهم والوسوسة.
- (٦) الرمة: ما يلي من العظام.
- (٧) الشوي: الميت.

في رثاء معن بن زائدة

كان معن بن زائدة (. . . - ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) من أشهر أجواد العرب ،
وأحد الشجعان الفصحاء ، والولاة المشهورين . عندما توفي رثاه عدد من
الشعراء من بينهم مروان بن أبي حفصة ، والحسين بن مطير . قال ابن أبي
حفصة في رثائه :

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى
مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تَنَالَا
كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ
مِنَ الإِظْلَامِ مُلْبَسَةٌ ظِلَالَا
هُوَ أَلْجَبَلُ الَّذِي كَانَتْ نَزَارُ
تَهْدُ مِنْ أَلْعَدُوِّ بِهِ الْجَبَالَا
وَعَطَلَتْ الثُّغُورُ لِفَقْدِ مَعْنٍ
وَقَدْ يَرُوي بِهَا الأَسْلَ النَّهَالَا^(١)
وَأظْلَمَتِ العِراقُ وَأورَثَتَهَا
مُصِيبَتُهُ المَجَلَّةُ أَعْتَلَالَا
وَوَظَلَّ الشَّامُ يَرْجُفُ جَانِبَاهُ
لِرُكْنِ العِزِّ جِينِ وَهِيَ فَمَالَا
وَكادَتْ مِنْ تُهَامَةٍ كُلِّ أَرْضٍ
وَمِنْ نَجْدٍ تَزُولُ غَدَاةَ زَالَا
فإنَّ يَعْلى البِلادَ لَهُ حُشُوعٌ
فَقَدْ كَانَتْ تَطُولُ بِهِ أَخْتِيالَا

(١) الثغور: الأماكن المحصنة على الحدود: الأسل النهال. الرماح العطاش.

أصابَ الموتُ يَوْمَ أَصابَ مَعْنًا
مِنَ الأَحْيَاءِ أَكْرَمَهُمْ فَعَالَا
وَكانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِمَعْنٍ
إلى أَنْ زارَ حُفْرَتَهُ عِيالًا
وَلَمْ يَكُ طالِبُ لِلعُرْفِ يَنْوي
إلى غَيْرِ آبِنِ زائِدَةَ آرْتِحالًا^(١)
مَضَى مَنْ كانَ يَحْمِلُ كُلَّ عِبٍّ
وَيَسْبِقُ فَضْلُ نائِلِهِ السُّؤالَا
وَمَا كانَتْ تَجِفُّ لَهُ حِياضُ
مِنَ المَعروفِ مُتْرَعَةً سَجالَا
مَضَى لِسَيْلِهِ مَنْ كُنْتَ تَرْجُو
بِهِ عَثْرَاتِ دَهْرِكَ أَنْ تُقالَا
فَلَسْتَ بِمالِكَ عَبْرَاتِ عَيْنٍ
أَبَتْ بِدُمُوعِها إِلَّا أَنهَمالَا
وَقَلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ
وَقَدْ ذَهَبَ النُّوالُ فلا نوالَا؟
سَيَذْكُرُكَ الخَلِيفَةُ غَيْرَ قالٍ
إِذا هُوَ في الأُمُورِ بلا الرِّجالَا
ولا يَنْسى وَقائِعَكَ اللُّواتِي
على أَعْدائِهِ جُعِلَتْ وَقالَا.

(١) العرف: العمل الطيب.

وقال الحسين بن مطير:

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولًا لِقَبْرِهِ
سَقَّتْكَ الْغَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعًا
فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَحْرُ وَالْبَرُّ مُتْرَعًا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُفْرَةٍ
مِنْ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْمَكَارِمِ مَضْجَعًا
بَلَى قَدْ وَسِعَتْ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيَّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضُفَّتَ حَتَّى تَصَدَّعَا
فَتَى عَيْشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا
وَلَمَّا مَضَى مَعْنُ مَضَى الْجُودُ وَأَنْقَضَى
وَأَصْبَحَ عِرْنِينُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعَا^(١)

(١) العرنين: الأنف. جدع أنفه: أي أذله.



أبو تمام

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (١٨٨ هـ / ٨٠٤ م - ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م) شاعر، وأديب، وأحد أمراء البيان. ولد في جاسم من قرى حوران بسورية، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه، وقدمه على شعراء وقته، فأقام في العراق، ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها. في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري.

له ديوان شعر في مختلف الفنون الأدبية الغنائية التي عرفها العرب. من أشهر مرثيته تلك التي رثا بها محمد بن حميد الطوسي، أحد قواد جيش المأمون العباسي. قال فيها:

كَذَا فَلْيَجَلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ
فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفْضِ مَاؤُهَا عُدْرُ^(١)
تُؤَفِّيتِ الْأَمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفْرِ السَّفْرُ^(٢)

(١) يجل: يعظم. ويفدح: يثقل ويصعب.

(٢) السفر: قطع المسافة. والسفر المسافرون.

وما كانَ إلا مالَ مَنْ قَلَّ مَالُهُ
وَذَخِرًا لِمَنْ أَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ ذَخِرٌ
وَمَا كَانَ يَذْرِي مُجْتَدِي جُودِ كَفِّهِ
إِذَا مَا اسْتَهَلَّتْ أَنَّهُ خُلِقَ الْعُسْرُ^(١)
أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ عَطَلَتْ لَهُ
فِجَاجُ سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَغَرَ الثَّغْرُ^(٢)
فَتَى كُلُّمَا فَاضَتْ عُيُونُ قَبِيلَةٍ
دَمًا ضَحِكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذُّكْرُ
فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ فِيمَا يَنْوِيهِ
فَفِي بَأْسِهِ شَطْرٌ وَفِي جُودِهِ شَطْرٌ
فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مَيْتَةً
تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مُضْرَبٌ سَيْفِهِ
مَنْ الضَّرْبِ وَأَعْتَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمْرُ
وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرْدَةً
إِلَيْهِ الْحِفَاظُ الْمَرُّ وَالخُلُقُ الْوَعْرُ^(٣)
وَنَفْسٌ تَعَاْفُ الْعَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا
هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَوْ دُونَهُ الْكُفْرُ^(٤)

(١) المجتدي: الطالب الجدوى أي العطية.

(٢) الفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع.

(٣) الحفاظ: الذب عن المحارم، والمواظبة على العمل. والوعر: الصعب.

(٤) تعاف: تكرر. والروع: الحرب.

فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ
وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ^(١)
عَدَا غَدَوَةً وَالْحَمْدُ نَسِجُ رِدَائِهِ
فَلَمْ يَنْصَرِفْ إِلَّا وَأَكْفَانُهُ الْأَجْرُ
تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَى
لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُندُسٍ خَضِرُ
كَأَنَّ بَنِي نَبَهَانَ يَوْمَ وَفَاتِهِ
نُجُومُ سَمَاءِ خَرٍّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ^(٢)
يُعَزُّونَ عَنِ ثَاوٍ تُعَزِّي بِهِ الْعُلَى
وَيَبْكِي عَلَيْهِ الْبَأْسُ وَالْجُودُ وَالشُّعْرُ
وَأَنَّى لَهُمْ صَبْرٌ عَلَيْهِ وَقَدْ مَضَى
إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى اسْتَشْهَدَا هُوَ وَالصَّبْرُ
فَتَى كَانَ عَذَبَ الرُّوحِ لَا مِنْ غَضَاضَةٍ
وَلَكِنْ كِبْرًا أَنْ يُقَالَ بِهِ كِبْرُ
فَتَى سَلَبَتْهُ الْخَيْلُ وَهَوِجَتِ لَهَا
وَبَزَّتْهُ نَارُ الْحَرْبِ وَهَوَلَتْهَا جَمْرُ^(٣)
وَقَدْ كَانَتْ الْبَيْضُ الْمَائِثِرُ فِي السَّوْعَى
بِوَاتِرٍ فَهِيَ الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ بُشْرُ^(٤)

(١) الأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

(٢) خَرٌّ: سقط.

(٣) بزت: سلبت.

(٤) المائير: السيوف التي في متونها أثر. والبواتر: القواطع. والبتر: المقطوعة.

أَمِنْ بَعْدِ طَيِّ الْحَادِثَاتِ مُحَمَّدًا
 يَكُونُ لِأَنْوَابِ النَّدَى أَبَدًا نَشْرُ
 إِذَا شَجَرَاتُ الْعُرْفِ جُدَّتْ أَصُولُهَا
 فِي أَيِّ فَرْعٍ يُوجَدُ الْوَرَقُ النَّضْرُ^(١)
 لَيْنُ أَبْغَضَ الدَّهْرُ الْحَوْوُنَ لِفَقْدِهِ
 لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحِبُّ لَهُ الدَّهْرُ
 لَيْنُ غَدَرَتْ فِي الرَّوْعِ أَيَّامُهُ بِهِ
 فَمَا زَالَتْ الْأَيَّامُ شِيمَتَهَا الْغَدْرُ^(٢)
 لَيْنُ أَلْبَسَتْ فِيهِ الْمَصِيبَةَ طَيِّئُ
 فَمَا عَرِثَ مِنْهَا تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
 كَذَلِكَ مَا نَنْفَكُ نَفْقُدُ هَالِكًا
 يشارِكُنَا فِي فَقْدِهِ الْبَدْوُ وَالْحَضْرُ
 سَقَى الْغَيْثُ غَيْثًا وَارَتْ الْأَرْضُ شَخْصَهُ
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَحَابٌ وَلَا قَطْرُ^(٣)
 وَكَيْفَ احْتِمَالِي لِلْغَيْوِثِ صَنِيعَةً
 بِإِسْقَائِهَا قَبْرًا وَفِي لَحْدِهِ الْبَحْرُ
 مَضَى طَاهِرَ الْأَنْوَابِ لَمْ تَبَقْ رَوْضَةٌ
 غَدَاةٌ نَوَى إِلَّا أَشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ^(٤)

(١) جدت: قطعت.

(٢) الشيمة: العادة والطبيعة.

(٣) وارت: أخفت.

(٤) نوى: مات.

ثَوَى فِي الثَّرَى مِنْ كَانَ يَحْيَا بِهِ الثَّرَى
وَيَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نَائِلُهُ الْغَمْرُ^(١)
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَاً فَإِنِّي
رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

وقال يرثي أخاه:

إِنِّي أَظَنَّ الْبَلَى لَوْ كَانَ يَفْهَمُهُ
صَدَّ الْبَلَى عَنْ بَقَايَا وَجْهِهِ الْحَسَنِ
يَا يَوْمَهُ لَمْ تَدْعُ حُسْنًا وَلَا أَدْبًا
إِلَّا حَكَمْتَ بِهِ لِلْحَدِيدِ وَالْكَفَنِ
لِلَّهِ مُقَلَّتُهُ وَالْمَوْتُ يَكْسِرُهَا
كَأَنَّ أَجْفَانَهُ سَكَّرَى مِنَ الْوَسَنِ
يَرُدُّ أَنْفَاسَهُ كَرَهَا وَتَعَطَّفَهَا
يَدُ الْمَنِيَّةِ عَطَفَ الرِّيحِ لِلْغُصْنِ
يَا هَوْلَ مَا أَبْصَرْتَ عَيْنِي وَمَا سَمِعْتَ
أُذُنِي فَلَا أَبْصَرْتَ عَيْنِي وَلَا أُذُنِي
لَمْ يَبْقَ مِنْ بَدَنِي جُزْءٌ عَلِمْتُ بِهِ
إِلَّا وَقَدْ حَلَّهُ جُزْءٌ مِنَ الْحَزَنِ
كَانَ اللَّحَاقُ بِهِ أَهْمًا وَأَحْسَنَ بِي
مِنْ أَنْ أُعِيشَ سَقِيمَ الرُّوحِ وَالْبَدَنِ.

(١) الغمر: الكثير.

ابن الرومي

هو أبو الحسن عليّ بن العباس بن جُريج (٢٢١هـ / ٨٣٥م - ٢٨٣هـ / ٨٩٦م). ولد في بغداد من أب روميّ، وأمّ فارسيّة. أكبّ على تحصيل العلم حتى استقامت له ثقافة واسعة من لغة وأدب وفلسفة ودين. توالى المَحَن عليه، فمات والده وهو حَدَث، ومات أخوه في شبابه، ومات أبناؤه الثلاثة، وماتت زوجته، والتهبت النيران بعض أملاكه، واغتصب الظلم البعض الآخر.

له ديوان ضخم من الشعر عالج فيه جميع الموضوعات الشائعة عند العرب. وفي الرثاء يندفق ابن الروميّ اندفاعاً لأنّه يرثي من يحبّ، ويرثي في حالة من الانفعال شديدة، وفي حالة من الحزن المتجمّع المتراكم شديدة أيضاً. وكان يخاطب الميت في لهفة المحبّة ولوعة الفراق، ويسكب نفسه عليه حسرة، ويُفصّل ما يعانیه من شقاء بعد فراقه، فيذكر آلامه، ووحشته، وسهرة في ظلمات الليالي، ودموعه المتساقطة في غزارة وحرارة، ويذكر كيف مات الفقيد، وكيف زالت بالموت صفاته، فيتحسّر عليها تحسّراً يكسر القلب، وقد يخاطب تلك الصفات، ويذرف عليها العبرات، والذي يقرأ شعره يحزن للشاعر وسوء حاله أكثر ممّا يحزن للفقيد.

رثاء ابنه الثالث

أُبْنِيَّ اِإْنِكَ وَالْعَزَاءِ، مَعَاً،
بِالْأَمْسِ لُفْتُ عَلَيْكُمَا كَفَنُ
تَاللَّهِ، لَا تَتَّفَكَ لِي شَجْنًا،
يَمْضِي الزَّمَانُ، وَأَنْتَ لِي شَجْنُ
مَا أَصْبَحْتَ دُنْيَايَ لِي وَطْنًا،
بَلْ حَيْثُ دَارُكَ، عِنْدِي الْوَطْنُ
مَا فِي النَّهَارِ، وَقَدْ فَقَدْتُكَ، مِنْ
أُنْسٍ، وَلَا فِي اللَّيْلِ لِي سَكْنُ^(١)
وَلَقَدْ تُسَلِّي الْقَلْبَ ذُكْرَتُهُ
أَنْبِي بَانَ الْقَاكَ مُرْتَهَنُ^(٢)
أَوْلَادَنَا! أَنْتُمْ لَنَا فِتْنُ!
وَتَفَارِقُونَ، فَأَنْتُمْ مِحْنُ!^(٣)

رثاء ولده الأوسط

بُكَاءُكُمْ يَشْفِي، وَإِنْ كَانَ لَا يُجِدِي،
فَجُودًا، فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرُكُمْ عِنْدِي^(٤)
أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْمَنَايَا وَرَمِيَهَا،
مِنْ الْقَوْمِ، حَبَاتِ الْقُلُوبِ، عَلَى عَمْدِ

(١) السكن: الاستئناس.

(٢) ذكرته: أي تذكر القلب. مرتهن: مقيد.

(٣) الفتنة: موضوع إعجاب وحب شديد يبلغ الجنون.

(٤) بكاءكم: خطاب لعينه.

تَوَخَّى حَمَامَ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صِبْتِي،
فَلَيْلَهُ، كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعِقْدِ^(١)
عَلَى حِينِ شِمْتُ الْخَيْرِ مِنْ لَمَحَاتِهِ،
وَأَنْسْتُ مِنْ أَعْمَالِهِ آيَةَ الرُّشْدِ^(٢)
طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّي، فَأَضْحَى مَرَارُهُ
بَعِيداً عَلَى قُرْبِ، قَرِيْباً عَلَى بُعْدِ
لَقَدْ أَنْجَزْتُ فِيهِ الْأَمَانِيَا وَعَيْدَهَا،
وَأَخْلَفْتُ الْأَمَالَ مَا كَانَ مِنْ وَعْدِ
لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَاللُّحْدِ لَبِثُهُ،
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ، إِذْ ضُمَّ فِي اللَّحْدِ
أَلْحُ عَلَيْهِ النَّزْفُ، حَتَّى أَحَالَهُ
إِلَى صُفْرَةِ الْجَادِي عَنِ حُمْرَةِ الْوَرْدِ^(٣)
وَوَظَلُّ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقُطُ نَفْسُهُ،
وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي الْقَضِيبُ مِنَ الرَّنْدِ^(٤)
فَيَا لَكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُساً
تَسَاقُطُ دُرٌّ مِنْ نِظَامٍ بِإِلَا عَقْدِ
عَجِبْتُ لِقَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ
وَلَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ^(٥)

(١) واسطة العقد: الجوهرة التي في وسطه.

(٢) شمت: رأيت. أنست: نظرت. الآية: العلامة.

(٣) الجادي: الزعفران.

(٤) يدوي: يذبل. الرند: شجر طيب الرائحة.

(٥) ينفطر: ينشق. الصلد: الصلب.

وَمَا سَرَّنِي أَنْ بَعْتُهُ بِشَوَابِهِ
 وَلَوْ أَنَّهُ التَّخْلِيدُ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
 وَلَا بَعْتُهُ طَوْعاً وَلَكِنْ غَضِبْتُهُ
 وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ الْحَوَادِثِ مِنْ مُعَدٍ^(١)
 وَإِنِّي وَإِنْ مُتَّعْتُ بِأَبْنِي بَعْدَهُ
 لَذَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ الْيَبَابُ فِي نَجْدٍ^(٢)
 وَأَوْلَادُنَا مِثْلُ الْجَوَارِحِ أَيُّهَا
 فَقَدْنَاهُ كَانَ الْفَاجِعَ الْبَيْنَ الْفَقْدِ
 لِكُلِّ مَكَانٍ لَا يَسُدُّ اخْتِلَالَهُ
 مَكَانُ أَخِيهِ مِنْ جَزُوعٍ وَلَا جَلْدٍ^(٣)
 هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ
 أَمْ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي
 لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَتْ بِي الْحَالُ بَعْدَهُ فَيَا
 لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بِهِ بَعْدِي
 تَكَلَّتْ سُرُورِي كُلُّهُ إِذْ تَكَلَّتْهُ
 وَأَصْبَحْتُ فِي لَذَاتِ عَيْشِي أَخَا زُهْدٍ^(٤)
 أَرْحَانَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي

(١) المعدي: المعين.

(٢) النيب: ج ناب وهي الناقة المسنة.

(٣) الجزوع: الفاقد الصبر.

(٤) تكلت: فقدت.

سَأَسْقِيكَ مَاءَ الْعَيْنِ مَا أَسْعَدَتْ بِهِ
وَإِنْ كَانَتْ السُّقْيَا مِنَ الْعَيْنِ لَا تُجْدِي (١)
أَعْيَنِي جُودًا لِي فَقَدْ جُدْتُ لِلشَّرَى
بِأَنْفَسٍ مِمَّا تَسْأَلَانِ مِنَ الرَّفْدِ (٢)
كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضُمَّةٍ
وَلَا شُمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدِ
الْأُمِّ لِمَا أَبْدِي عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى
وَإِنِّي لِأَخْفِي مِنْكَ أضعَافَ مَا أَبْدِي
مُحَمَّدٌ، مَا شَيْءٌ تُوهِمَ سَلْوَةً
لِقَلْبِي إِلَّا زَادَ قَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ
أَرَى أَخَوَيْكَ الْبَاقِيَيْنِ كِلَيْهِمَا
يَكُونَانِ لِلْأَحْزَانِ أَوْزَى مِنَ الزُّنْدِ (٣)
إِذَا لَعِبَا فِي مَلْعَبٍ لَكَ لَدَعَا
فُؤَادِي بِمِثْلِ النَّارِ عَنْ غَيْرِ مَا قَصِدِ
فَمَا فِيهِمَا لِي سَلْوَةٌ بَلْ حَرَارَةٌ
يَهِيَجَانِهَا دُونِي وَأَشْقَى بِهَا وَحْدِي
وَأَنْتَ وَإِنْ أَفْرَدْتَ فِي دَارٍ وَخَشَةِ
فَأِنِّي بِدَارِ الْأَنْسِ فِي وَخَشَةِ الْفَرْدِ
عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ مِنِّي تَجْنِيَةٌ وَمِنْ
كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ

(١) أسعدت بالدمع : ساعدت .

(٢) الرفد : الجود والعطاء .

(٣) أوزى : أكثر إيقاداً وإشعالاً . الزند : حديدة من فولاذ تضرب بحجر صوان فينقدح النار .

الشريف الرضي

هو أبو الحسن محمد بن الحسين (٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م - ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م). ولد في بغداد من أصل شريف يرتقي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. كان يطمح إلى الخلافة، ويُطعمه فيها الكاتب المشهور أبو إسحاق الصابي. تولّى إمارة الحجّ، وشهد مواسم العيد، وفيها النساء الوافدات من جميع البلدان. فحرّك المشهد أوتار قلبه، فنظم قصائد شهيرة في الغزل العفيف عُرفت بالحجازيات.

ومات الصابي سنة ٣٨٤ هـ وكان رئيس الكتاب في ديوان الخلافة العباسية، وأحد المشهود لهم بحسن الرأي وبلاغته الإنشاء. فرثاه الشريف الرضي بهذه القصيدة العامرة، وهي أكثر من ثمانين بيتاً، نثب منها ما يلي:

أَعْلِمْتَ مَنْ حُمِلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ
أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي
جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرَّ فِي الْبَحْرِ أَعْتَدَى
مِنْ وَقْعِهِ مُتَتَابِعَ الْإِزْبَادِ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ دَفْنِكَ فِي الثَّرَى
أَنَّ الثَّرَى يَغْلُو عَلَى الْأَطْوَادِ

بُعْدًا لِيَوْمِكَ فِي الزَّمَانِ فَإِنَّهُ
أَقْدَى الْعُيُونِ وَفَتْ فِي الْأَعْضَادِ^(١)
لَا يَنْقُذُ الدَّمْعُ الَّذِي يُبْكِي بِهِ
إِنَّ الْقُلُوبَ لَهُ مِنْ الْأَمْدَادِ
أَعَزَّرَ عَلِيٌّ بَأَنَ يَفَارِقَ نَاطِرِي
لَمَعَانُ ذَاكَ الْكُوكَبِ الْوَقَادِ
أَعَزَّرَ عَلِيٌّ بَأَنَ نَزَلَتْ بِمَنْزِلِ
مُتَشَابِهِ الْأَمْجَادِ وَالْأَوْغَادِ^(٢)
مَنْ لِلْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ إِنْ هَمَى
ذَاكَ الْغَمَامُ وَعَبَّ ذَاكَ الْوَادِي^(٣)
مَنْ لِلْمَمَالِكِ لَا يَزَالُ يَلْمُهَا
بِسِدَادِ أَمْرِ ضَائِعٍ وَسِدَادِ
إِنَّ الدَّمُوعَ عَلَيْكَ غَيْرُ بَخِيلَةٍ
وَالْقَلْبُ بِالسُّلُوفِ غَيْرُ جَوَادِ
سَوَدَتْ مَا بَيْنَ الْفَضَاءِ وَنَاطِرِي
وَعَسَلَتْ مِنْ عَيْنِي كُلُّ سَوَادِ^(٤)
مَاذَا الَّذِي حَبَسَ الْجَوَادَ عَنِ الْمَدَى
مِنْ بَعْدِ سَبَقْتِهِ إِلَى الْأَمَادِ

(١) فت في عضده : أضعفه .

(٢) أي القبر الذي لا فرق فيه بين الأمجاد والأوغاد .

(٣) إذا سال غمام الفصاحة وطفى واديهها .

(٤) أي من كثرة البكاء .

ماذا الذي فجع الهمام بوئبة
 وعدا على دمه وكان العادي^(١)
 يا ليت أني ما اقتنيتك صاحباً
 كم قنينة جلبت أسى لفؤادي
 برد القلوب بمن تحب لقاءه
 مما يجر حرارة الأجداد^(٢)
 لا تطليبي يا نفس خلاً بعه
 فلمثلها أعيأ على المرتاد
 إن لم تكن من أسرتي وعشيرتي
 فلأنت أعلقهم يداً بودادي
 ضاقت عليّ الأرض بعدك كلها
 وتركت أضيقتها عليّ بلادي
 لك في الحشا قبر وإن لم تأوه
 ومن الدموع روائح وعودي
 ما مات من جعل الزمان لسانه
 يتلو مناقب عوداً وبوداي^(٣)
 فاذهب كما ذهب الربيع وإثره
 باق بكل خمائل ونجاد

(١) ما هذا الذي وثب على الهمام وغلبه وقد كان أبداً هو الغالب.

(٢) غبطة القلب بالمحبيب هي سبب الألم والحزن عند فراقه.

(٣) ما مات من يعيد الزمان دائماً ذكرى مناقبه.

وسقَاكَ فَضْلَكَ إِنَّهُ أُرْوَى حَيًّا
مِنْ رَائِحِ مُتَعَرِّسٍ أَوْ غَادٍ^(١)
جَدْتُ - عَلَى أَنْ لَا نَبَاتَ بِأَرْضِهِ -
وَقَفْتُ عَلَيْهِ مَطَالِبُ الرَّوَادِ

(١) فضلك أروي من السحاب الرائح والغادي .

أبو العلاء المعريّ

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م - ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م) شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرّه النعمان. أصيب بالجدري صغيراً، فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. له ديوان شعري ضخم، وعدد كبير من المؤلفات. من أشهر قصائده تلك التي رثى بها صديقه الفقيه الشاعر أبو الخطاب محمد الجبلي، قال فيها(*):

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مَلْتِي وَاعْتِقَادِي
نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرَنُّمُ شَادِ
وَشَبِيهُ صَوْتِ النَّعِيِّ إِذَا قَيْسَ
بَصَوْتِ الْبَشِيهِرِ فِي كُلِّ نَادِ
أَبَكْتَ تِلْكَمُ الْحَمَامَةَ أُمَّ
غَنَّتْ عَلَى فَرْعِ غُضْنِهَا الْمِيَادِ
صَاحِ هَذَا قُبُورُنَا تَمْتَلَأُ الرَّحْبَ
فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفَّفِ السَّوْطَةَ مَا أَظُنُّ أُدِيمَ الـ
أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

(*) في القصيدة عدد من الأبيات المدروسة.

وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدِمَ الْعَهْدُ
 هَوَانُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
 سِرٌّ إِنْ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُويْدًا
 لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ
 رَبُّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا
 ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاخُمِ الْأَضْدَادِ
 وَدَفِينٍ عَلَى بَقَايَا دَفِينٍ
 فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْأَبَادِ
 فَاسْأَلِ الْفَرَقْدَيْنِ عَمَّنْ أَحْسَا
 مِنْ قَيْلٍ وَأَنْسَا مِنْ بِلَادِ^(١)
 كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارٍ
 وَأَنْزَارًا لِمُدْلَجٍ فِي سَوَادِ
 تَعَبٌ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أُعْجَبُ
 إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ
 إِنَّ حُزْنَاً فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا
 فَ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيْلَادِ
 خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ
 أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
 إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا
 لِي إِلَى دَارِ شَقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ

* * *

(١) اسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من أحوال الناس .

أَبْنَاتِ الْهَدِيلِ أَسْعِدْنَ أَوْ
عِدْنَ قَلِيلَ الْعَزَاءِ بِالْإِسْعَادِ^(١)
إِيهِ لِلَّهِ دَرَكُنَّ فَاَنْتُنَّ الْبَد
وَإِي تَحْسِينُ جِمْطِ الْوَدَادِ
مَا نَسِيْتُنَّ هَالِكًا فِي الْأَوَانِ الْخَالِ
أُودَى مِنْ قَبْلِ هُلْكَ إِيَادِ^(٢)
بَيْدَ أَنِّي لَا أُرْتَضِي مَا فَعَلْ
تُنَّ وَأَطْوَأُقُكُنَّ فِي الْأَجْيَادِ
فَتَسْلَيْنَ وَاسْتَعْرَنَ جَمِيعًا
مِنْ قَمِيصِ الدُّجَى ثِيَابَ جِدَادِ
ثُمَّ غَرَّدْنَ فِي الْمَاتَمِ وَأَنْدَبْنَ
بِشَجْوِ مَعَ الْغَوَانِي الْخِرَادِ

* * *

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أَبِي حَمَزَةَ الْأَوَا
بِ مَوْلِي جَجِي وَخَدْنَ اِقْتِصَادِ^(٣)
أَنْفَقَ الْعُمَرَ نَاسِكًا يَطْلُبُ الْعِدْ
مَ بِكَشْفِ عَنْ أَصْلِهِ وَانْتِقَادِ
ذَا بِنَانٍ لَا تَلْمَسُ الدُّهَبَ
الْأَحْمَرُ زُهْدًا فِي الْعَسْجِدِ الْمُسْتَفَادِ^(٤)

* * *

(١) بنات الهديل: الحمام. واسعدن أي ساعدن.

(٢) إشارة إلى أن الحمام لا تزال وفيه تبيكي هديلها الذي هلك سابقاً.

(٣) أي إصابة الدهر وكان صاحب عقل وصلاح.

(٤) العسجد: الذهب.

وَدَعَا أَيُّهَا الْحَفِيَّانِ ذَاكَ الشَّخْصَ
 إِنَّ السُّودَاعَ أَيْسَرُ زَادِ
 وَأَغْسِلَاهُ بِالذَّمْعِ إِنْ كَانَ طُهْرًا
 وَأَذْفِنَاهُ بَيْنَ الْحَشَى وَالْفُؤَادِ
 وَاحْبِسُوهُ الْأَكْفَانَ مِنْ وَرَقِ
 الْمُصْحَفِ كِبْرًا عَنْ أَنْفَسِ الْأَبْرَادِ
 وَاتْلُوا النِّعَشَ بِالْقِرَاءَةِ وَالْتِ
 سِيحِ لَا بِالنَّحِيْبِ وَالتَّغْدَادِ
 أَسْفَ غَيْرُ نَافِعٍ وَاجْتِهَادُ
 لَا يُوْدِي إِلَى غِنَاءِ اجْتِهَادِ
 طَالَمَا أَخْرَجَ الْحَزِينَ جَوَى
 الْحُزْنَ إِلَى غَيْرِ لَاتِقِ بِالسَّدَادِ
 مِثْلَمَا فَاتَتْ الصَّلَاةُ سَلِيمَانَ
 فَانْحَى عَلَى رِقَابِ الْجِيَادِ
 وَهُوَ مَنْ سَخَّرَتْ لَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ
 بِمَا صَحَّ مِنْ شَهَادَةِ صَادٍ^(١)

* * *

كَيْفَ أَصْبَحْتَ فِي مَحَلِّكَ بَعْدِي
 يَا جَدِيرًا مِنِّي بِحُسْنِ افْتِقَادِ
 قَدْ أَقْرَأَ الطَّبِيبُ عَنْكَ بِعَجْزِ
 وَتَقْضِي تَرْدُدُ الْعُودِ

(١) صاد: سورة في القرآن . ويقصد بهذا البيت وما قبله أن الحزن قد يخرج الإنسان عن صوابه كما فعل النبي سليمان من ضرب الخيل لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة . وهو الذي شهد له في سورة «ص» إذ قيل ﴿فسخرنا له الريح﴾ الآية .

وَأَنْتَهَى الْيَأْسَ مِنْكَ وَاسْتَشَعَرَ الْوَجْدُ
 بِأَنَّ لَا مَعَادَ حَتَّى الْمَعَادِ^(١)
 هَجَدَ السَّاهِرُونَ حَوْلَكَ لِلتَّمِ
 سْرِيطِ وَأَيْحُ لَأَعْيُنِ الْهَجَادِ
 كُنْتُ خِلَ الصُّبَا فَلَمَّا أَرَادَ
 الْبَيْنَ وَأَفَقْتُ رَأْيَهُ فِي الْمُرَادِ^(٢)
 وَرَأَيْتَ الْوَفَاءَ لِلصَّاحِبِ الْأَوْ
 لٍ مِنْ شَيْمَةِ الْكَرِيمِ الْجَوَادِ
 وَخَلَعْتَ الشُّبَابَ غَضًّا فَيَا
 لَيْتَكَ أُبْلَيْتَهُ مَعَ الْأَنْدَادِ
 فَاذْهَبَا خَيْرَ ذَاهِبِينَ حَقِيقَ
 يَنْ بِسَقِيَا رَوَائِحِ وَغَوَادِ
 وَمِرَاثٍ لَوْ أَنْهَنْ دُمُوعَ
 لَمَحُونِ السُّطُورِ فِي الْإِنْشَادِ

* * *

زَحَلُ أَشْرَفِ الْكَوَاكِبِ دَارًا
 مِنْ لِقَاءِ الرَّدَى عَلَى مِعَادِ
 وَلَنَارِ الْمَرْيَخِ مِنْ حَدَثَانِ الدَّهْرِ
 مُطْفِئِ وَإِنْ عَلَتْ فِي اتِّقَادِ
 وَالثَّرِيَا رَهِينَةً بِأَفْتِرَاقِ الشُّمْلِ
 حَتَّى تُعَدَّ فِي الْإِفْرَادِ

(١) المعاد الثانية يوم القيامة.

(٢) الضمير في «أراد» يرجع إلى الصبا.

كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَدْمِ مَا تَبَتَّى الْوَرَقَاءُ^(١)
 وَالسَّيِّدُ الرَّفِيعُ الْعَمَادِ
 وَالْفَتَى ظَاعِنٌ وَيَكْفِيهِ ظِلُّ السُّدْرِ
 ضَرَبَ الْأَطْنَابِ وَالْأَوْتَادِ^(٢)
 بَانَ أَمْرُ الْإِلَهِ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ
 فَدَاعٍ إِلَى ضَلَالٍ وَهَادٍ
 وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِّيُّ فِيهِ
 حَيَّوَانٌ مُسْتَحَدَثٌ مِنْ جَمَادٍ
 وَاللَّيْبُ اللَّيْبُ مَنْ لَيْسَ يَغْتَرُّ
 بِكَوْنِ مَصِيرَهُ لِلْفَسَادِ

* * *

(١) الورقاء: الحمامة.

(٢) أي إن الإنسان راحل يغنيه ظلُّ السُّدْرِ (وهو شجر النبق) عن أن يبني المنازل، أي إنه قليل الإقامة في الدنيا فيجب أن لا يهتم بها.

المتنبّي

هو شاعر عصره، بل شاعر العرب جميعاً على مرّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٣٠٣ هـ / ٩١٥ م - ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م). قضى حياته متنقلاً من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكن أكثر إقامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمدانيّ في حلب. اشتهر بالشعر الحكيمّ، والمدح، والهجاء، والرثاء.

وفي رثائه يقف المتنبّي من الموت موقف الحكيم، ويقف من المائت موقف التعظيم والتبجيل، ويقف من آل الفقيّد موقف المادح، ويقف من نفسه موقف الذكرى والألم النفسيّ، فرثاؤه «ليس رثاء التفجع والانهيار والضعف، ولا رثاء من يبكي ويدرف دموعاً، وإنما هو رثاء التشاؤم، والتألم، والتأمل، ورثاؤه لمن يحبّ هو رثاء الثورة النفسية، والانفجار التشاؤميّ، والصرخات المدوّية التي تهزّ الكيان، وتزعزع الإنسان».

رثاء أمّ سيف الدولة

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِيَّ

وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونَ بِنَا قِتَالٍ^(١)

(١) المشرفيّة: السيوف. العوالي: الرماح. المنون: الموت.

وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ
 وَمَا يُنَجِّينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي (١)
 وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا
 وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ
 نَصِيئِكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبِ
 نَصِيئِكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ
 رَمَائِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى
 فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
 فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْني سِهَامُ
 تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ (٢)
 وَهَانَ، فَمَا أَبَالِي بِالرُّزَايَا
 لِأَنِّي مَا أَتَنَفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي
 وَهَذَا أَوَّلُ النَّاعِيْنَ طُرًّا
 لِأَوَّلِ مَيْتَةٍ فِي ذَا الْجَلَالِ
 كَأَنَّ الْمَوْتَ لَمْ يَفْجَعْ بِنَفْسِ
 وَلَمْ يَخْطُرْ لِمَخْلُوقٍ بِبَالِ
 صَلَاةِ اللَّهِ خَالِقِنَا حُنُوطُ
 عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفُونِ بِالْجَمَالِ (٣)

(١) السَّوَابِقُ: كرام الخيل. المقربات: المدناة من البيوت، إما لفرط الحاجة إليها أو للضنُّ بها. الخَبَبُ: نوع من العدو. يقول: ورتبط الخيول الكريمة، ومع ذلك لا تنجينا من سعي اللَّيَالِي.

(٢) النَّصَالُ: ح نصل، وهي الحديدية التي في رأسها السهم.

(٣) يدعو لها بأن تكون رحمة الله عليها كالحنوط للميت.

على المدفون قبل التراب صوناً
 وقبل اللحد في كرم الخلال^(١)
 فإن له يطن الأرض شخصاً
 جديداً ذكرناه وهو بالي^(٢)
 وما أحدٌ يخلد في البرايا
 بل الدنيا تؤول إلى زوال
 أطاب النفس أنك مت موتاً
 تمنته البواقي والخوالي
 وزلت ولم تري يوماً كريهاً
 تسر الروح فيه بالزوال
 رواق العز حوئك مسبطاً
 وملك علي آينك في كمال^(٣)
 سقى مشواك غاد في الغوادي
 نظير نوال كفك في النوال
 أسائل عنك بعدك كل مجد
 وما عهدي بمجد عنك خالي
 يمر بقبرك العافي فيبكي
 ويشغله البكاء عن السؤال^(٤)

(١) يقول إنها كانت مدفونة بالصون وكرم الخلال قبل أن تدفن في التراب واللحد.
 (٢) يقول: إن شخصه وإن كان يلى في القبر إلا أن ذكرنا إياه سيبقى أبداً.
 (٣) مسبط: ممتد.
 (٤) العافي: طالب المعروف.

وما أَهْدَاكَ لِلجَدْوَى عَلَيْهِ
لَوْ أَنَّكَ تَقْدِيرِينَ عَلَى فَعَالٍ
بِعَيْشِكَ هَلْ سَلَوْتَ فَإِنَّ قَلْبِي
وَلِإِنْ جَانَبْتُ أَرْضَكَ غَيْرُ سَالِي
نَزَلَتْ عَلَى الكِرَاهَةِ فِي مَكَانٍ
بُعْدَتْ عَنِ النُّعَامِي وَالشُّمَالِ
حَصَانٌ مِثْلُ مَاءِ المُرْنِ فِيهِ
كُتُومُ السَّرِّ صَادِقَةُ المَقَالِ
وَلَيْسَتْ كَالِإِنَاثِ وَلَا اللُّوَاتِي
تُعَدُّ لَهَا القُبُورُ مِنَ الجِجَالِ
وَلَا مَنْ فِي جَنَازَتِهَا تَجَارُ
يَكُونُ وَدَاعُهَا نَفْضَ النُّعَالِ^(١)
مَشَى الأَمْرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً
كَأَنَّ المَرَوَ مِنْ زَفِّ الرُّثَالِ^(٢)
وَأَبْرَزَتْ الخُدُورُ مُحَبَّاتٍ
يَضَعْنَ النُّقْسَ أَمَكْنَةَ الغَوَالِي^(٣)

(١) يقول في هذين البيتين: ليست كالنساء التي يُعَدُّ لها القبر سترًا، فهي مصونة مستورة ولم تكن من نساء السُّوقَة يتبع جنازتها تجار وبيعة ينفضون النعال من التراب إذا انصرفوا عن القبر.

(٢) المرو: حجارة الصوان: زَفِّ: صفار الريش. الرثال: ولد النعام.

(٣) النقس: هنا السواد. الغوالي: ج غالية وهي نوع من الطيب. يقول: خرجت لموتها نساء كُنَّ مُحَبَّاتٍ.

وَلَوْ كَانَ النُّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا
 لَفُضِّلَتْ النُّسَاءُ عَلَى الرَّجَالِ
 وَمَا التَّائِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
 وَلَا التَّذْكَيرُ فَخْرٌ لِلْهِلَالِ
 وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا
 قُبَيْلَ الْفَقْدِ مَفْقُودَ الْمِثَالِ
 يَدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمْشِي
 أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي
 وَكَمْ عَيْنٍ مُقْبَلَةٌ النُّوَاحِي
 كَجَيْلٍ بِالْجِنَادِلِ وَالرَّمَالِ (١)
 وَمُعْضٍ كَانَ لَا يُغْضِي لِحُطْبِ
 وَبَالٍ كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْهَزَالِ
 أَسَيْفَ السُّدُورِ اسْتَنْجَدَ بِصَبْرِ
 وَكَيْفَ بِمِثْلِ صَبْرِكَ لِلْجِبَالِ
 فَأَنْتَ تَعَلَّمُ النَّاسَ التَّعَزِّي
 وَخَوْضَ الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ السُّجَالِ
 وَحَالَاتِ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى
 وَحَالَكَ وَاجِدُ فِي كُلِّ حَالِ
 فَلَا غِيْضَتُ بِحَارِكَ يَا جَمُومًا
 عَلَى عِلَلِ الْغَرَائِبِ وَالذُّخَالِ (٢)

(١) الجنادل: ج جندلة وهي الحجارة. يقول: كم عين كانت عزيزة، فصارت تحت الأرض مكحولة بالرمل والحجارة.

(٢) غيضت: نقضت. الجموم: الكثير. علل: الشرب الثاني أو تبعاً. الغرائب: ج غريبة وهي التي ترد إلى الحوض. الذخال: أن يدخل بعير قد شرب بين بعيرين لم يشربا. يقول: لا =

رَأَيْتَكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مُلُوكًا
كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالٍ (١)
فَإِنْ تَفَقَّى الْأَنْسَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ
فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ (٢)

* * *

وقال يرثي أبا شجاع فاتكاً، وقد توفي بمصر سنة خمسين وثلاثمائة،
وكانت هذه المرثية بعد خروجه من مصر:

الْحُزْنَ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرُدُّعُ
وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعٌ (٣)
يَتَنَازَعَانِ دُمُوعَ عَيْنِ مُسْهَدٍ
هَذَا يَجِيءُ بِهَا وَهَذَا يَرْجِعُ (٤)
النُّومُ بَعْدَ أَبِي شُجَاعٍ نَافِرٌ
وَاللَّيْلُ مُعِيٌّ وَالْكَوَاكِبُ ظُلُّعٌ (٥)

= نَقَضْتُ بِحَارِكِ يَا بَحْرًا كَثِيرَ الْمَاءِ وَإِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ الْإِبِلُ الْغَرِيبَةَ وَشَرِبَتْ مِنْهُ.

(١) يقول: أنت بين الملوك كالمستقيم بين المعوج.

(٢) يقول: إن فضلت الناس وأنت واحد منهم، فلا عجب، إذ قد يفضل بعض الشيء جملته،
كالمسك، وهو بعض دم الغزال، يفضل الغزال كله.

(٣) يقول: الحزن لأجل المصيبة يقلقني، والتجمل - تكلف الصبر - يمنعي عن التهالك
والجزع، والدمع بين الحالين عاص لدى التجمل فيحتبس مطيعاً للقلق فينسكب وبذلك
يعصى صاحبه تارة ويطيعه أخرى.

(٤) عني بالمسهد - أي الكثير السهاد، الممنوع عنه النوم - نفسه. يقول: الحزن والصبر
يتنازعان دموع عيني فالحزن يجيء بها - أو يجريها والتجمل يردّها.

(٥) يقول: النوم بعد أبي شجاع لا يالف العين: أي لا تنام العيون بعده حزناً عليه، والليل يطول
فلا ينقضي، كأنه قد أعيا عن المشي - كل من التعب - فانقطع، والكواكب ظلوع -
كالرجى - لا تقدر أن تقطع الفلك فتغرب. يريد طول الليل لاستيلاء الحزن عليه والهم

إِنِّي لِأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّتِي
 وَتُحَسُّ نَفْسِي بِالْحِمَامِ فَأَشْجَعُ^(١)
 وَيَزِيدُنِي غَضَبُ الْأَعَادِي قَسِيوَةً
 وَيُلِمُّ بِي عَثْبُ الصَّدِيقِ فَأَجْزَعُ^(٢)
 تَصْفُو الْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
 عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ^(٣)
 وَلَمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ
 وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمَحَالِ فَتَطْمَعُ^(٤)

= على قلبه. وعبارة ابن جني: لو كان الليل والكواكب مما يؤثر فيهما حزن لأثر فيهما موته. وقال الخطيب: إنما أراد أن الليل طويل لفقده فالليل معي والكواكب ظلم ما تسير. يريد طول الليل للحزن.

(١) الحمام: الموت. يقول: أنا جبان عند فراق الأعبة أخافه خوف الجناء وأشجع عند الموت في ميدان الوغى فلا أهابه. يعني أن الفراق أعظم خطباً عنده من الموت كما قال أبو تمام:

جليد على عتب الخطوب إذا عرت

ولست على عتب الاخلاء بالأجد

(٢) يقول: إنه صعب على أعدائه لا يلين لهم، بل يزداد عليهم قسوة إذا غضبوا، ويجزع عند عتب الصديق فلا يطيق احتماله، كما قال أشجع السلمي:

يُعْطِي زَمَامَ الطَّوْعِ إِخْوَانَهُ

وَيَلْتَوِي بِالْمَلِكِ الْقَادِرِ

وبعد: فإن الممتني يريد بهذين البيتين عطفه ورقة قلبه عند المودة والملاينة، وشدته عند المباينة والمقاومة.

(٣) قوله عما مضى: متعلقٌ بغافل، ويتوقع: ينتظر. يقول: إنما تصفو الحياة لجاهل لا يدرك أحوالها ومصايرها، أو غافل عما مضى فما من العبر وما ينتظر في العواقب من انقضائها أو أحداثها التي لا يطيق لها احتمالاً، أما العاقل الفطن الذي ينظر إلى الدنيا بعين المعرفة ويتأمل الدراية ويمثل صوارفها وتصايرها فإنها لا تصفوله.

(٤) يسومها: يكلفها، ويعني بالحقائق: ما لا شك فيه للعاقل، وهو أن الدنيا على الحقيقة دار غرور وأخطار، والإنسان فيها على خطر عظيم، وأن الحياة، فانية فمن غالط في هذا نفسه =

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ
 مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَصْرَعُ (١)
 تَتَخَلَّفُ الْأَثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا
 حِينًا وَيُذْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَبِعُ (٢)
 لَمْ يُرْضَ قَلْبَ أَبِي شُجَاعٍ مَبْلَغُ
 قَبْلِ الْمَمَاتِ وَلَمْ يَسْعَهُ مَوْضِعُ (٣)
 كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً
 ذَهَبًا فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلْقَعُ (٤)

=ومناها السلامة والبقاء صفا له العيش حين ألقى عن نفسه الفكر في العواقب، وسام نفسه طلب المحال من البقاء في السلامة مع نيل المراد، فطمعت في ذلك.

(١) الهرمان: هما الهرم الأكبر الأوسط - وهما معروفان. يقول أين من بناهما؟ وأين قومه؟ ومتى كان يوم موته؟ وكيف كان مصرعه؟ يعني أنهما بقيا بعد من بناهما واندرس ذكره وذكر قومه، فما يعرفون ولا يعرف بأي مية هلك، ولا في أي وقت لطول ممر الدهر عليه. يريد أن الدنيا مفنية لأهلها منكرا على من اغتر بها، وأن الفناء حتم في رقاب العباد، وأن الجميع صائرون إلى الفناء. وعبارة العكبري: قوله أين الذي الهرمان من بنيانه: استدل بينائهما على تمكنه، وأقامهما شاهدين على قوته وقدرته، أي أين هو وقوته؟ وأين قومه وكثرتهم؟ وأين عددهم وعددهم؟ أما عفت الدنيا آثار ملكه وأفته؟ أما فرقت شمله وشتته؟ أما في بطن الأرض غيبته؟

(٢) يقول: إن الآثار تبقى بعد أصحابها حيناً من الدهر تدل على تمكنهم وقوتهم وسطوتهم ثم ينالها ما نالهم من الفناء فتذهب كما ذهب أصحابها، وهذه شئنة الدنيا مع أهلها، والمعهود من تصاريها.

(٣) يقول: إنه - لبعد مرتقى همته - لم يكن يرضى بمبلغ يبلغه في العلا حتى يطلب ما فوقه، ولم يكن ليسعه موضع من الأرض لأنه لا يشبع طموحه.

(٤) البلقع: الخالي. يقول: كنا نظنه صاحب ذخائر من الأموال، فلما مات لم يخلف مالا لأنه كان جواداً معطاء.

وَإِذَا الْمَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالْقَنَا
وَبَنَاتُ أَعْوَجَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ^(١)
الْمَجْدُ أَخْسَرُ وَالْمَكَارِمُ صَفْقَةٌ
مِنْ أَنْ يَعِيشَ لَهَا الْكَرِيمُ الْأَرُوعُ^(٢)
وَالنَّاسُ أَنْزَلُ فِي زَمَانِكَ مَنْزِلًا
مِنْ تَعَايِشِهِمْ وَقَدْرُكَ أَرْفَعُ^(٣)
بَرْدُ حَشَايَ إِنْ آسْتَطَعْتَ بِلَفْظَةٍ
فَلَقَدْ تَضُرُّ إِذَا تَشَاءُ وَتَنْفَعُ^(٤)

(١) يقول: وإنما كل ما كان يجمعه في حياته المكارم والأسلحة والخيل، أما الذهب فلا، لأنه كان يفرقه بالعطاء، بنات أعوج: يعني الخيل؟ وأعوج: فحل مشهور من خيل العرب، تنسب إليه الخيل الأعوجية، قيل سمي بذلك لأن غارة وقعت على أصحابه ليلاً وكان مهراً، ولضنهم به حملوه في وعاء على الإبل حين هربوا من الغارة، فاعوج ظهره وبقي فيه العوج، فلقب بالأعوج.

(٢) الأروع: الذكي الفؤاد. يقول: إن المجد والمكارم أخسر صفقة وأنقص حظاً من أن يعيش لها هذا المرثي، يعني أنها شقيت لذهاب من كان يحفظها ويجمع شملها وقال العكبري - عند إعراب قوله المجد أخسر والمكارم صفقة: إذا جعلت التقدير المجد والمكارم أخسر صفقة اختل، لأنك تفصل بالمكارم بين أخسر وبين صفقة، وهي منصوبة بأخسر - التي هي عطف على المجد - وهذا غير جائز، لأن صفقة تحل من أخسر محل الصلة من الموصول، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول زيد أحسن وعمرو وجهاً، ولكن لك أن تصرفه إلى وجه آخر، وهو أن تجعل المكارم عطفاً على الضمير في أخسر؟ فإن عطفته على الضمير الذي فيه لم يكن أجنبياً منه، فلا يعد فصلاً بينه وبين صفقة، فيصير نحو قولك: مررت برجل أكل وعمرو خبزاً، بعطف عمرو على الضمير في أكل ونصب خبزاً بأكل.

(٣) يقول: إن الناس في زمانك أقل قدراً من أن تكون بينهم تخالطهم وتعاشرهم، وقدرك أجل من أن تعايش أهل هذا الزمان.

(٤) يقول: كلمني كلمة وأسمعني منك لفظة إن قدرت عليها، ليسكن ما في قلبي من لوعة الحزن، فلقد كنت في حياتك تضر - إذا تشاء - أعداءك، وتنفع أوليائك، أو فانفني بكلامك.

مَا كَانَ مِنْكَ إِلَى خَلِيلٍ قَبْلَهَا
 مَا يُسْتَرَابُ بِهِ وَلَا مَا يُوجَعُ^(١)
 وَلَقَدْ أَرَاكَ وَمَا تَلِمُ مُلِمَةً
 إِلَّا نَفَاها عَنْكَ قَلْبٌ أَصْمَعُ^(٢)
 وَيَدُّ كَأَنَّ قِتَالَها وَنَوَالَها
 فَرُضٌ يَحِقُّ عَلَيْكَ وَهُوَ تَبْرَعُ^(٣)
 يَا مَنْ يُبَدِّلُ كُلَّ يَوْمٍ حُلَّةً
 أَنَّى رَضِيَتْ بِحُلَّةٍ لَا تُنَزَعُ^(٤)
 مَا زِلْتَ تَخْلَعُها عَلَى مَنْ شَاءَها
 حَتَّى لَيْسَتْ أَلْيَوْمَ مَا لَا تَخْلَعُ
 مَا زِلْتَ تَدْفَعُ كُلَّ أَمْرٍ فَادِحٍ
 حَتَّى آتَى الْأَمْرُ الَّذِي لَا يُدْفَعُ^(٥)

(١) يقال استراب به: أي رأى منه ما يريبه؟ أي يقلقه. يقول: لم يكن منك إلى أخلائك قبل هذه المرة: أي قبل أن تفجعهم بنفسك: ما يريهم منك أو يرجعهم، فلما فقدت أوجعت قلوبهم وأبكيت عيونهم.

(٢) الأصمع: الذكي الحاد، وقوله وما تلم: حال. يقول: كنت أراك في حال حياتك وما تنزل بك نازلة من نوازل الدهر إلا دفعها عنك قلب ذكي.

(٣) يقول: ونفاها عنك يد شنتتها إعطاء الأولياء وقتال الأعداء حتى لكأن النوال والقتال واجبان عليها، وهما تبرع ولا وجوب.

(٤) يريد: يا من كان في حياته يلبس كل يوم لباساً جديداً... إذا يخلع الملبوس على من يقصده - كيف ترضين أن تلبس الآن حلة لا يخلع؟ يعني الكفن - والحلة: اللباس من ثوبين - إزار ورداء - ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين.

(٥) الفادح: الذي يثقل حمله، وفي هذا المعنى يقول الحماسي:

دَفَعْنَا بِكَ الْأَيَّامَ حَيْثُ إِذَا أَتَتْ
 تُرِيدُكَ لَمْ نَسْطِعْ لَهَا عَنْكَ مَدْفَعَا

فَظَلَلْتَ تَنْظُرُ لَا رِمَاحَكَ شُرْعُ
 فِيمَا عَرَكَ وَلَا سِيُوفَكَ قُطْعُ (١)
 بِأَبِي الْوَحِيدُ وَجَيْشُهُ مُتَكَاتِرُ
 يَبْكِي وَمِنْ شَرِّ السَّلَاحِ الْأَدْمُعُ (٢)
 وَإِذَا حَصَلْتَ مِنَ السَّلَاحِ عَلَى الْبِكَاءِ
 فَحَشَاكَ رُعْتَ بِهِ وَخَدَكَ تَقْرَعُ (٣)

(١) عراق: أصابك ونزل بك، وشرع الرمح: بسط اليد به وسدده. يقول: ظللت - أقيمت - تنظر إلى الموت نظر العاجز لم تعمل رماحك ولا سيوفك في دفع ما نزل بك، إذ لا مدفع للموت.

(٢) بابي: تفتدية. وقوله وجيشه متكاتر: حال من ضمير الوحيد، ومتكاتر: خبر أول لجيشه، ويكي: خبر ثان. يقول: إنه - مع كثرة جيوشه - كان وحيداً مع الأنصار، فلم يكن لجيوشه غناء فيما نزل به غير البكاء، ولا عذة غير الدموع، مع أن الدموع من شر الأسلحة، لأنها تضرب صاحبها ولا تغني شيئاً عند المصيبة. وقد فسر هذا في البيت التالي.

(٣) رعت: أفزعت وأخفت، وتقرع: تضرب. يقول: إذا لم يكن لك سلاح غير البكاء فلا غناء في الكباء، إنما تروع به القلب وتقرع به الخد. أي أنه لا يجدي ولا يدفع شيئاً.

رثاء محمد بن بقیة

عندما انتصر عضد الدولة على ابن عمه عز الدولة، قتل محمد بن بقیة وزير عز الدولة صلباً، فرثاه أبو الحسن الأنباري بهذه القصيدة التي لاقت شهرة واسعة حتى إن عضد الدولة لما وقف عليها، قال: لقد تمنيت أن أكون أنا المصلوب، وتكون هذه القصيدة فيّ.

عَلُّوْ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ
لِحَقِّ تِلْكَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ جِئْنَ قَامُوا
وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيباً
وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ أَحْتِفَاءً
كَمَدَّهُمَا إِلَيْهِمْ بِالهِبَاتِ
وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنَّا
يَضُمُّ عِلَاكَ مِنَّا بَعْدَ الْوَفَاةِ

أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاضُوا
عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ
لِعَظْمِكَ فِي النُّفُوسِ بَقِيَّتَ تَرْعَى
بِحُرَّاسٍ وَحُفَاطٍ ثِقَاتِ
وَتُوقِدُ حَوْلَكَ النُّيْرَانَ لَيْلًا
كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ
رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدُ
عَلَاهَا فِي السُّنَيْنِ الْمَاضِيَاتِ
وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ فِيهَا تَأْسُ
تُبَاعِدُ عَنْكَ تَغْيِيرَ الْعُدَاةِ
وَلَمْ أَرَ قَبْلَ جَذْعِكَ قَطُّ جَذْعًا
تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ
أَسَاتَ إِلَى النُّوَائِبِ فَاسْتَشَارَتْ
فَأَنْتَ قَتِيلٌ ثَارِ النَّائِبَاتِ
وَكُنْتَ لِمَعَشَرٍ سَعْدًا فَلَمَّا
مَضَيْتَ تَفَرَّقُوا بِالْمُنْجَسَاتِ
غَلِيلٌ بَاطِنٌ لَكَ فِي فُؤَادِي
يُحَقِّفُ بِالذُّمُوعِ الْجَارِيَاتِ
وَلَوْ أَنِّي قَدِيزْتُ عَلَى قِيَامِ
بِفَرَضِكَ وَالْحَقُوقِ الْوَاجِبَاتِ

مَلَأْتُ الْأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي
وَتَحْتُ بِهَا خِلاَفَ النَّائِحَاتِ
وَلَكِنِّي أَصْبِرُ عَنْكَ نَفْسِي
مَخَافَةَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ الْجُنَاةِ
وَمَا لَكَ تَرِبَةً فَأَقُولُ تُسْقِي
لَأَنَّكَ نَضَبُ مَطَلِ الْهَاطِلَاتِ
عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَتْرَى
بِرَحْمَاتِ غَوَادِ رَائِحَاتِ

علي بن محمد
التهامي

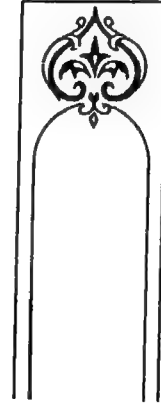
لأبي الحسن علي بن محمد التهامي . وهو شاعر لطيف النظم، تُوفِّي قتلًا في سجن مصر سنة ٤١٦ هـ، وكان قد وصل إليها في مهمة سياسية خفية . وهذه المراثاة في ولده مات صغيراً، وهي مشهورة بحسنها وروعيتها، تجمع بين الحزن، والحكم، والفخر، وتزيد أبياتها على الثمانين تقتصر منها على هذه النخبة :

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ
يَا كَوَكِبًا مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمُرَهُ
وَكَذَاكَ عُمُرُ كَوَاكِبِ الْأَسْحَارِ
وَهِيَ اللَّالِ أَيْامٍ مَضَى لَمْ يَسْتَدِرْ
بَذْرًا وَلَمْ يُنْهَلْ لِقَوْتِ سَرَارِ^(١)
عَجَلَ الْخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَوَانِهِ
فَمَحَاهُ قَبْلَ مَظْنَةِ الْإِبْدَارِ
وَأَسْتُلُّ مِنْ أُنْرَابِهِ وَلِدَائِهِ
كَالْمُقْلَةِ آسُتُلَّتْ مِنَ الْأَشْفَارِ

(١) وقت السرار: آخر ليلة في الشهر.

فَكَأَنَّ قَلْبِي قَبْرُهُ وَكَأَنَّهُ
فِي طَيْبِهِ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ
أَبْكِيهِ ثُمَّ أَقُولُ مُعْتَذِرًا لَهُ
وَفُفِّتَ حِينَ تَرَكْتَ الْأُمَّ دَارِ
جَاوَزْتُ أَعْدَائِي وَجَاوَزَ رَبُّهُ
شَتَانًا بَيْنَ جَوَارِهِ وَجَوَارِي
أُخْفِي مِنَ الْبُرْحَاءِ نَارًا مِثْلَ مَا
يُخْفِي مِنَ النَّارِ الزَّنَادُ الْوَارِي
وَأُخْفِضُ الزَّفْرَاتِ وَهِيَ صَوَاعِدُ
وَأَكْفِكُ الْعَبْرَاتِ وَهِيَ جَوَارِ
وَشِهَابُ نَارِ الْحُزْنِ إِنْ طَاوَعْتُهُ
أَوْزَى وَإِنْ عَاصَيْتُهُ مُتَوَارِي
وَأَكْفُ نِيرَانَ الْأَسَى وَلَرُبَّمَا
غُلِبَ التَّصَبُّرُ فَأَزْتَمَتْ بَشَرَارِ
ثَوْبُ الرِّيَاءِ يَشْفُ عَمَّا تَحْتَهُ
وَإِذَا التَّحَفَّتْ بِهِ فَإِنَّكَ عَارِ
قَصُرَتْ جَفُونِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنَهَا
أَمْ صُوِّرَتْ عَيْنِي بِلَا أَشْفَارِ
أُحْيِي اللَّيَالِي التَّمُّ وَهِيَ تُمِيتُنِي
وَتُمِيتُهُنَّ تَبَلُّجُ الْأَشْحَارِ
وَطَرِي مِنَ الثُّدُنِيَا الشُّبَابُ وَرَوْقُهُ
فَإِذَا أَنْقَضَى فَقَدْ أَنْقَضَتْ أَوْطَارِي

قَصُرَتْ مَسَافَتُهُ وَمَا حَسَنَاتُهُ
عِنْدِي وَلَا آلاؤُهُ بِقِصَارِ
نَزْدَادٍ هَمًّا كَلَّمَا أَزْدَدْنَا غِنَى
وَالْفَقْرُ كُلُّ الْفَقْرِ فِي الْإِكْثَارِ
مَا زَادَ فَوْقَ الزَّادِ خُلْفًا ضَائِعًا
فِي حَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ أَوْ عَارِ
إِنِّي لِأَرْحَمُ حَاسِدِيَّ لِحَرِّ مَا
ضَمِنْتَ صُدُورَهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ



من التراث
في العصر
الآنسي



أبو البقاء الرندي

هو صالح بن شريف الرندي، نسبة إلى رندة في جنوبي الأندلس .
شاعر أندلسي متأخر من أبناء القرن التاسع الهجري . اشتهر بقصيدته السائرة
في رثاء الأندلس .

رثاء الأندلس

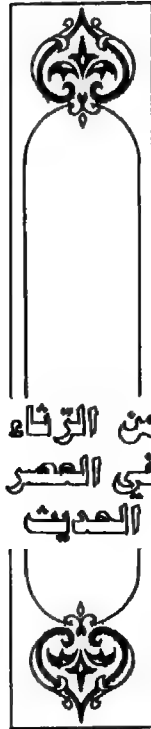
لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ
فَلَا يُغْرِ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُنَّاهَا دُولُ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنُ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وَهَلِيهِ الدَّارُ لَا تَبْقِي عَلَى أَحَدٍ
وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرًا لَا مَبْرَدَ لَهُ
حَتَّى قَضَوْا، فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ
كَمَا حَكَى عَنِ خِيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَانُ

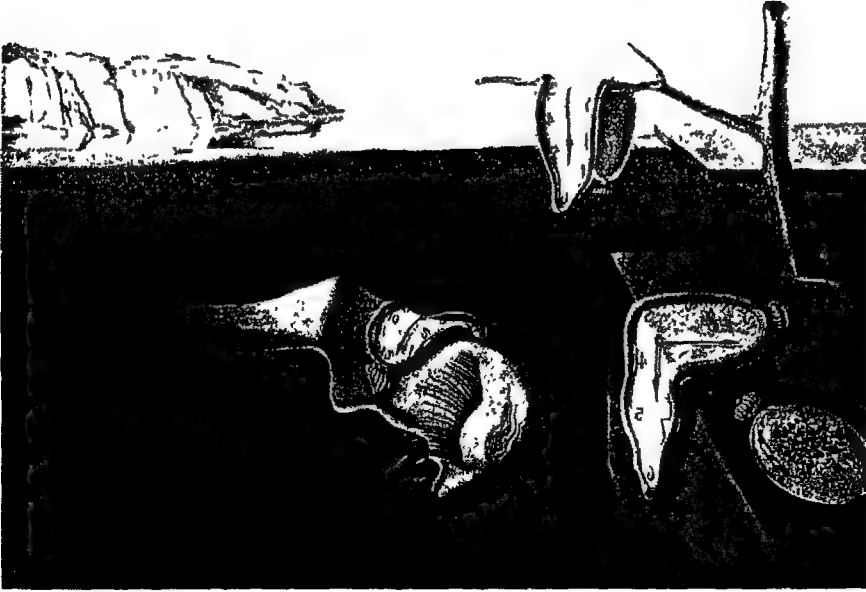
فجائعُ الدَّهْرِ أنواعٌ مُنَوَّعةٌ
 ولِلزَّمانِ مَسَرَّاتٌ وأحزَانُ
 ولِلحَوادِثِ سَلَوَانٌ يُسَهِّلُهَا
 وَمَا لِمَا حَلَّ بِالإِسْلامِ سَلَوَانُ
 دهى الجَزِيرَةَ أَمْرًا لا عَزَاءَ لَهُ
 هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَأَنهَدُ نَهْلَانُ^(١)
 تَبْكِي الحَنِيفِيَّةُ البَيْضَاءُ مِنْ أَسْفِ
 كما بَكَى لِفِرَاقِ الإِلْفِ هَيْمانُ
 على دِيَارِ مِنَ الإِسْلامِ خَالِيَّةِ
 قَدْ أَقْفَرَتْ وَلِهَا بِالْكَفْرِ عَمْرَانُ
 يا غافلًا وَلَهُ في الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ
 إنْ كُنْتَ في سِنَةِ فَالدَّهْرِ يَقْطَانُ^(٢)
 تلكَ المُصِيبَةُ أَنْتَ ما تَقَدَّمَهَا
 وما لَهَا مِنْ طِوَالِ الدَّهْرِ نَسِيانُ
 يا رَاكِبِينَ عِتاقَ الخَيْلِ ضامِرَةً
 كَأَنَّها في مَجالِ السَّبْقِ عِقبانُ
 وَحامِلِينَ سِوْفَ الهِنْدِ مُرَهَفَةً
 كَأَنَّها في ظِلامِ النُّقعِ نيرانُ
 وَرَاتِعِينَ وراءَ البَحْرِ في دِعَةِ
 لَهُمْ بِأوطانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطانُ

(١) أحد وثهلان : جبلان .

(٢) السَّنة : الغفلة .

أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أُنْدُلُسٍ
فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ
كَمْ يَسْتَعِيثُ بَنَى الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ
قَتَلَى وَأَسْرَى فَمَا يَهْتَزُّ إِنْسَانُ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ
وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ
أَلَا نُفُوسٌ أَيْبَاتٌ لَهَا هِمٌّ
أَمَا عَلَى الْخَيْرِ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانُ
يَا مَنْ لِدَلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ
أَحَالَ حَالَهُمْ جَوْرٌ وَطُغْيَانُ
بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ
وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ
وَلَوْ رَأَيْتَ بُكَاهُمُ عِنْدَ بَيْعِهِمْ
لَهَالِكِ الْأَمْرِ وَاسْتَهْوَتِكَ أَحْزَانُ
لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ
إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ





سلفادور دالي
- إلتحاح الذاكرة - ١٩٣١

هذه اللوحة لسلفادور دالي، وفيها يتشاب الوقت، وتسيل الساعات وتمتد على بقايا شبه إنسانية وعضون يابسة مكعبات: أو يحتاج النمل الأسود الأكل، ساعة مقفلة على الوقت.

بينما يبدو الأفق الشاحب الغرائبي، وكأنه عالم آخر أبدي لا ينتمي إلى الوقت الإنساني، في تناقض مع القلق والسأم والتشويه والهلاك، وكلها مترافقة مع مرور الوقت في ذاكرة الإنسان الحاجة.

الياس أبو شبكة

أديب لبنانيّ (١٩٠٣ - ١٩٤٧ م) ولد في نيويورك، وعاش في لبنان. عشق الطبيعة، ووقف إلى جانب الإنسان كان من البناة المجدّدين، وأروع ما عنده المزج البديع بين الإنسان والطبيعة. له آثار شعرية ونثرية، منها «أفاعي الفردوس»، و«غلواء»، و«الرسوم».

من أشهر قصائده في الرثاء قصيدته «الحجر الحي» تلك التي قالها في فوزي المعلوف الذي توفي في البرازيل، وأقيم له تمثال نصفي أثبت فوق نصب تذكاري في ساحة بلدية زحلة (لبنان) مدينته الأم.

ومن هذه القصيدة:

أَطْبِقْ جَنَاحَيْكَ مَعْقُوداً لَكَ الظَّفَرُ
فَقَدْ وَصَلْتَ وَشَوَّطُ^(١) المَجْدِ مُخْتَصِراً
مَا ضُرُّ وَكَرَّكَ أَنْ تَأْتِيَهُ مُنْطَفِئاً
مَا دَامَ قَلْبُكَ فِي جَنْبِيهِ يَسْتَعِيرُ^(٢)
أَتَيْتَهُ فِي النُّحَاسِ الحَيِّ طَيِّبَةً
عَلَيْهِ مِنْ رَوْحِكَ الأَغْرَاقُ والسُّرُرُ

(١) الشوط: المرحلة.

(٢) يستعر: يشتعل.

عَيْنَاكَ فِي الْحَجَرِ الْمَصْبُوبِ سَاهِرَةً
يَقْظَانَةٌ فِيهِمَا أَحْلَامُكَ الْغُرَزُ^(١)

* * *

نِيرَانُ عَبَقَرٍ فِي عَيْنَيْكَ إِنْ مَرَدَتْ^(٢)
هُجُجُ الدُّجَى فَعَلَى عَيْنَيْكَ تَنْصَهَرُ
مَهْمَا طَغَى اللَّيْلُ لَا تُشْفِيكَ زَوْبَعَةٌ
وَلَا تَجْهَمُ فِي أَجْفَانِكَ الْحَوْرُ

* * *

يَقْظَانُ وَالنَّاسُ عُمِيٌّ فِي مَرَاقِدِهِمْ
سَيَّانٌ نَامُوا عَلَى ذَلِكَ أَمْ احْتَضِرُوا
عَارَ عَلَيْنَا نَنَامُ اللَّيْلَ هَانِئَةً
عُيُونُنَا وَعِبَابُ اللَّيْلِ مُعْتَكِرُ
وَتَشْهَدُ الصُّبْحُ عُرْسَ الصُّبْحِ مُنْعَمِدًا
عَلَى جَبِينِكَ نَوْرٌ مِنْهُ يَنْضَفِرُ
وَلَائِمٌّ لَكَ تُرْجَى مِنْ مَوَائِدِهَا
الْعَطْرُ وَالنَّوْرُ وَالْأَلْحَانُ وَالصُّوْرُ

* * *

تَشْدُ جَفْنَيْكَ رُؤْيَا لَا قَرَارَ لَهَا
كَأَنَّمَا الْغَيْبُ فِي عَيْنَيْكَ مُنْحَصِرُ

(١) الغرزة: البهية.

(٢) مردت: عصت.

عَيْنُ الْعَظِيمِ ضِيَاءِ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا
مَرَّ الْجَحِيمُ وَلَمْ يَطْرَفْ لَهَا بَصَرُ
مُنذُ ابْنِ مَرْيَمَ وَالْأَكْفَانُ هَاوِيَةً
عَنِ النَّبُوغِ وَصَخْرُ الْقَبْرِ مُنْحَدِرُ
كَمْ فِي بِلَادِكَ مِنْ نَفْسٍ تَوَدُّ عَلَى
وَقَاحِ عَوْرَتِهَا أَنْ تُسَدَّلَ السُّتُرُ

* * *

أَبَا النَّسُورِ، سَقَيْتَ الْمَوْتَ خَمْرَتَهُ /
فَصَلِّبِكَ الْمُصْطَفَى لِلْخُلْدِ مُدْخَرُ
مَا ضَرَّ نَسْرَكَ لَمْ يَعْقِبْ وَقَدْ نَسَلَتْ
مِنْهُ النُّجُومُ، فَفُوزِي وَحَدَهُ أَسْرُ
وَرُبُّ حَيٍّ غَدَاً فِي قَوْمِهِ حَجْرًا
وَرُبُّ مَيِّتٍ غَدَاً حَيًّا بِهِ الْحَجْرُ

مصطفى المنفلوطي

أديب مصري (١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م - ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م) نابغة في الإنشاء والأدب. انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه. وله شعر جيد فيه رقة وعذوبة. من مؤلفاته «النظرات»، و«في سبيل التاج»، و«العبرات»، و«مجدولين».

ومن رثائه نثب قوله في رثائه ابنه.

١ - الآن نَفَضْتُ يَدَيَّ مِنْ تُرَابِ قَبْرِكَ يَا بُنَيَّ، وَعُدْتُ إِلَى مَنَزِلِي، كَمَا يَعُودُ الْقَائِدُ الْمُتَكَسِّرُ مِنْ سَاحَةِ الْحَرْبِ، لَا أَمَلُكَ إِلَّا دَمْعَةً، لَا أَسْتَطِيعُ إِرسَالَهَا، وَزَفْرَةً لَا أَسْتَطِيعُ تَصْعِيدَهَا؛ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي كَتَبَ لِي فِي لَوْحِ مَقَادِيرِهِ^(١) هَذَا الشَّقَاءَ فِي أَمْرِكَ، فَرَزَقَنِي بِكَ قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَهُ إِيَّاكَ، ثُمَّ أَخْتَطِفُكَ قَبْلَ أَنْ أَسْتَعْفِيهِ^(٢) مِنْكَ، قَدْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّمَ قَضَاءَهُ فِيَّ، وَأَنْ يُجْرِعَنِي الْكَأْسَ حَتَّى تُمَالِتِيهَا^(٣)، فَلَهُ الْحَمْدُ رَاضِيًا وَغَاضِبًا، وَلَهُ الشُّنَاءُ مُنْعِمًا وَسَالِبًا، وَلَهُ مِنِّي

(١) لوح المقادير: إيمان ديني بأن الله يضع لكل إنسان حين يُولد لوحاً يكتب عليه سيرة حياته الدنيا والمصائب التي تنزل به.

(٢) أستعفيه: أطلب منه العفو عن تكليفه.

(٣) الثمالة: البقية الباقية في الكأس.

ما يَشاءُ مِنَ الرِّضا بِقِضايِهِ، والصَّبْرِ عَلَى بَلائِهِ.

٢ - رَأَيْتَكَ يا بُنَيَّ في فِراشِكَ عَلِيلاً فَجَزَعْتُ^(١)، ثُمَّ خِفتُ عَلَيْكَ المَوتَ فَفَزَعْتُ، وَكَأَنَّمَا كانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ المَوتَ والحِياةَ شَأْنٌ مِنَ شُؤُونِ النَّاسِ، وَعَمَلٌ مِنَ الأَعْمالِ التي تَمَلِكُها أَيْديهِمْ، وَأَسْتَشْرِتُ الطَّيِّبَ في أَمْرِكَ، فَكَتَبَ لِي الدَّواءَ، وَوَعَدَنِي بِالشِّفاءِ، فَجَلَسْتُ بِجانِبِكَ أَصَبُّ في فَمِكَ ذلكَ السَّائِلَ الأَصْفَرَ قَطْرَةَ قَطْرَةً، وَالقَدْرُ يَنْتَرِعُ مِنَ جَنِّبِكَ الحِياةَ قِطْعَةً قِطْعَةً، حَتَّى نَظَرْتُ، فَإِذا أَنْتَ بَينَ يَدَيَّ جُثَّةٌ بارِدةٌ لا حَرَكَ بِها، وَإِذا قارِورةُ الدَّواءِ ما تَزالُ في يَدَيَّ فَعَلِمْتُ أَنِّي قَدِ نَكَلْتُكَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أَمْرُ القِضايِ لا أَمْرُ الدَّواءِ! لَقَد كانَ خَيراً لِي وَلَكَ يا بُنَيَّ أَنَّ أَكَل^(٢) إلى اللَّهِ أَمْرَكَ في شِفايِكَ وَمَرَضِكَ، وَحِياتِكَ، وَمَوْتِكَ...

٣ - ما أَسْمَجَ^(٣) وَجَةَ الحِياةِ مِن بَعْدِكَ يا بُنَيَّ! وما أَقْبَحَ صَورةَ هذِهِ الكائِناتِ في نَظري! وما أَشَدَّ ظُلْمَةَ البَيتِ الَّذي أَسَكُنُهُ بَعدَ فِراقِكَ إِيَّاهُ! فَلَقَد كُنْتُ تَطلُعُ في أَرجائِهِ شَمْساً مُشرِقةً تُضِيءُ لِي كُلَّ شَئٍ فيهِ، أَمّا اليَومَ فلا تَرى عَيني مِمَّا حَولِي، أَكثَرَ ما تَرى عَينِكَ الآنَ في ظُلُماتِ قَبْرِكَ. بَكَى الباكُونَ والبَاكِياتُ عَلَيْكَ ما شاءوا، وَتَفَجَّعُوا، حَتَّى إِذا ضَعُفَتْ قِواهُمُ عَنِ اأَحْتِمالِ أَكثَرَ مِمَّا أَحْتَمَلُوا، لَجَّأوا إلى مَضاجِعِهِمْ، فَسَكَنوا إِلِياها، وَلَم يَبقَ ساهِراً، في ظُلْمَةِ هذِهِ اللَّيلِ، وَسُكونِهِ، غَيرُ عَينَينِ قَريحَتَينِ^(٤): عَينِ أَبِيكَ

(١) جزعت: خفت.

(٢) أكل: أسلم إلى الله.

(٣) ما أسمج: ما أقبح.

(٤) قريحتين: جريحتين.

الشاكيل المسكين، وعين أخرى أنت تعلمها...

٤ - دفنتك اليوم يا بني، ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت من قبلكما أخوتكما، فيا لله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقى القلوب، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب! لماذا ذهبتم يا بني بعدما جئتم؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون؟...

صلاح لبكي

أديب لبناني، كان شاعراً وناثراً ورجل صحافة وبلاغة.
وُلد في البرازيل سنة ١٩٠٦، ثم انتقل، طفلاً، مع أبيه، إلى لبنان،
حيث حصل قسطاً وافراً من المعارف.
«عاش حياته كلها - كاتباً، شاعراً، صحفياً، ومحامياً على الذروة».
هو شاعر مُبدع، أحبّ الجمال، وعبر عنه في شعر أصفى عليه جمالية
الألفاظ، وجمالية المعاني، وجمالية السياق.
هو شاعر إنساني مثالي، نبضت العاطفة الإنسانية في كل لفظة من
الفاظه، وفي كل لفظة من لفظاته. توفي سنة ١٩٥٥.
من آثاره: «مواعيد» و«أرجوحة القمر» و«من أعماق الجبل».
مناسبة القصيدة: عندما توفي الشيخ إبراهيم اليازجي رثاه خليل مطران
بقصيدة رائعة مطلعها:

ربُّ البيانِ وسيّد القلمِ
وفيتَ قسطك للعلى قنم

وعندما تُوفي شاعر الأقطار العربيّة خليل مطران رثاه شعراء كثيرون،
وحدث أن أقامت الكلية الشريفة بزحلة مهرجاناً لذكرى وفاته، فأنشد الشاعر

الكبير صلاح لبكي القصيدة التالية راثياً ومعارضاً قصيدة للمتنبي في رثاء
والدة سيف الدولة أمير حلب.

رَمَتْكَ بِمَا تُعِدُّ لَنَا اللَّيَالِي،
فَهَذَا الشُّجُو^(١) مِنْ ذَلِكَ الْوِصَالِ^(٢)
وَمَا نَبُكِيكَ مَيْتاً، كُلُّ بَاقٍ
تَمْنِي أَنْ يَكُونَكَ فِي الْمَالِ^(٣)
وَقَدْ كُنْتَ الضُّيَاءَ عَلَى زَوَالِ،
فَأَمْسَيْتَ الضُّيَاءَ بِلا زَوَالِ
مُعَلِّمَ كُلِّ أُغْنِيَةٍ حَنِيناً
وَهَدِيَّ الْوَرْدِ فِي سُبُلِ الْغَوَالِي^(٤)
لِمَنْ نَضَخِي إِذَا اشْتَبَهَتْ ظُنُونُ^(٥)
وَقَدْ سَكَتَ ابْنُ نَاصِيَةِ الْمَقَالِ^(٦)
أَتَيْتَ الشُّعْرَ وَهَوَّ عَلَى هُزَالِ
بِأُوطَانٍ سَبَقَنَ إِلَى أَنْجَالِ
فَرُحْتَ تَصَوُّغُ أَشْتَاتِ الْمَعَانِي
وَيَعِصُمُكَ الطُّمُوحُ مِنَ الضُّلَالِ

(١) الشجو: الهم والحزن.

(٢) الوصال: ضد الهجر.

(٣) المال: المصير، يقول: كل باق تمنى أن يكون ميتاً فادياً إياك بحياته.

(٤) سبل الغوالي: الطرق التي تؤدي إلى فرائد الأفكار.

(٥) إذا اشتبهت ظنون: أي إذا لم تظهر الحقيقة، ووقعنا في ظنون مختلفة.

(٦) ابن ناصية المقال: أي كما قال خليل مطران «رب البيان وسيد القلم».

وَتَبْنِي، فَالْقَصِيدَةُ بَعْلَبِكَ،
 وَكَانَتْ قَبْلُ أُبَيَاتِ الْجِبَالِ
 لَقَدْ جَاوَزْتَ أَبْكَارَ الْأَوَاتِي^(١)
 عَلَى مَهْلٍ، وَإِبْدَاعِ الْأَوَالِي^(٢)
 فَلَمْ يُعْجِزْكَ صَعْبٌ فِي مَجَالٍ،
 وَلَا أَغْوَاكَ سَهْلٌ فِي مَجَالِ
 كَانَ الْحُسْنَ أَسْلَمَ كُلُّ سِرٍّ
 إِلَيْكَ، فَصِرْتَ مَوْضُوعَ السُّؤَالِ
 نَعَى لُبْنَانُ، يَوْمَ نُعَيْتَ، عَقْلًا
 تَرَسَّلَ^(٣) لِلْحَقِيقَةِ وَالْجَمَالِ
 نَعَى الْقَلْبَ الَّذِي غَمَرَ الْبَرَايَا
 حَنَانًا غَيْرَ مُنْقَطِعِ النَّوَالِ^(٤)
 نَعَى الْخُلُقَ الْحَصَانَ^(٥)، نَعَى السَّجَايَا
 نَعَى الْعَذَبَ الْمَنَاقِبِ وَالْخِلَالَ^(٦)
 نَعَى الْأَوْقَى مَوَائِقًا وَعَهْدًا،
 وَلَوْ كَرُّ الزَّمَانِ بِغَيْرِ حَالِ

(١) جاوزت أبقار الأواتي : أي أنك سبقت الآتين بعدك إلى المبتكرات.

(٢) الأوالي : أي الذين سبقوك ولا سيما الأقدمين منهم.

(٣) ترسل : أي مال ميلاً شديداً.

(٤) النوال : العطاء.

(٥) الخلق الحصان : أي المصون.

(٦) الخلايا والسجايا والمناقب : الصفات الخلقية الكريمة.

نَعَى الْأَدَابَ، عِلْمًا وَأَحْتِشَامًا،
وَذَاكَ الصُّوْغُ فِي ذَاكَ الْجَلَالِ
أَخَا أَلْهِمَّ الْكِبَارِ، سَطَعَتْ فِينَا
أَبَا لِلْعَبَقْرِيَّاتِ الصُّقَالِ
لِيْن تَكُنِ الْمَنِيَّةُ جُلًّا فَضْلِ
فَقَدْ وَفِيَتْ قِسْطَكَ لِمَعَالِي
وَحُقُّ لَكَ الرُّقَادُ، وَأَنْتَ طِفْلُ
تَخْطِي السَّابِقِينَ إِلَى الْكَمَالِ

الأخطل الصغير

هو بشارة بن عبد الله الخوري (١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. مولده ووفاته في بيروت. أنشأ جريدة «البرق»، وعمل في الصحافة طول حياته. له ديوانان شعريان، هما الهوى والشباب، و«شعر الأخطل الصغير». من أهم قصائده في الرثاء تلك التي قالها في رثاء سعد زغلول التالية، وسنثبث بعدها القصيدة الشهيرة التي قالها في الاحتفال الذي أقيم في حلب تكريماً لشاعرها الخالد أبي الطيب المتنبي بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته.

قالوا: دَهَتْ مِصْرَ دَهْيَاءُ، فَقُلْتُ لَهُمْ:
 هَلْ غِيَضَ النَّيْلُ أَمْ هَلْ زُلْزِلَ الْهَرَمُ؟
 قالوا: أَشَدُّ وَأَذْهَى. قُلْتُ: وَيَحْكُمُ
 إِذَا، لَقَدْ مَاتَ سَعْدُ، وَأَنْطَوَى الْعَلَمُ!

* * *

لِمَ لَا تَقُولُونَ: إِنَّ الْعَرَبَ قَاطِبَةٌ
 تَيْتَمُوا، كَانَ زُغْلُولُ أَبَا لَهُمْ؟
 لِمَ لَا تَقُولُونَ: إِنَّ الْعَرَبَ مُضْطَرِبٌ
 لِمَ لَا تَقُولُونَ: إِنَّ الشَّرْقَ مُضْطَرِمٌ؟

عَدَرْتُمْ، كَانَ بِلَاءَ الْكَوْنِ صَاحِبِكُمْ
فَكَيْفَ تَمَلُّ أُذُنَ السَّامِعِ الْكَلِيمِ؟
لَلصَّمْتِ أُبَلِّغُ مِنْهَا، وَهُوَ مُنْسَجِقٌ
وَالذَّمْعُ أَفْعَلُ مِنْهَا، وَهُوَ مُنْسَجِمٌ

* * *

جَاءَ النَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِ، فَمَا لِأُمَمٍ
وَجَاءَ سَعْدٌ، فَشَمَلُ الشَّرْقِ مُلْتَمِمْ
الْقَائِلُ الْحَقُّ لَا تُشْنَى أَعْنَتُهُ
وَالوَاحِدُ الْفَرْدُ فِي أَثْوَابِهِ أُمَّمٌ
لُطْفُ الْمَسِيحِ مُذَابٌ فِي مَحَاجِرِهِ
وَعَزْمُ أَحْمَدَ فِي جَنْبِيهِ يَحْتَدِمُ
صَلَى عَلَيْهِ النَّصَارَى فِي كَنَائِسِهِمْ
وَالْمُسْلِمُونَ سَعَوْا لِلْقَبْرِ، وَاسْتَلَمُوا

* * *

الْمُؤْمِنُونَ بِسَعْدِ، أَيْنَ أُبْصِرُهُمْ
وَالْمُعْجِبُونَ بِسَعْدِ، أَيْنَ أَيْنَ هُمْ؟
أَفْرِي الطَّيَالِسِ عَنْهُمْ لَا أُشَاهِدُهُمْ
أَفْرِي الْقَلَائِسِ عَنْهُمْ لَا أُحْسُهُمْ
وَأَسْأَلُ الْحَفْلَ عَنْهُمْ لَا يُجَاوِبُنِي
كَأَنَّمَا الْحَفْلُ فِي آذَانِهِ صَمٌّ

* * *

بَلَى شَهِدْتُهُمْ وَالنَّقْعُ مُعْتَكِرٌ
 وَالْحَقُّ مُطْلَبٌ وَالنَّغْرُ مَبْتَسِمٌ
 وَرَايَةُ الْوَطَنِ الْغَالِي تَظْلُهُمْ
 كَأَنَّهَا حَضَنْتْ أَفْرَاحَهَا الرَّحْمُ (١)
 رُوحٌ تَسِيلُ عَلَى الْقِرْطَاسِ إِنْ خَطَبُوا
 وَقَدْ تَسِيلُ عَلَى الْقِرْضَابِ إِنْ قَحَمُوا (٢)
 مِضْرٌ وَلَيْسَ سِوَى مِضْرٍ لَهُمْ أَرْبٌ
 إِنْ تَشَقَّ يَشْقُوا وَإِنْ تَنَعَمَ فَقَدْ نَعِمُوا

* * *

رَجَالَ مِضْرٍ شَفِيعِي إِنْ عَتَبْتُكُمْ
 أَنَّ الْمُجِبَّ لَدَيْكُمْ لَيْسَ يَتَهُمُ
 إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِي تَحْزِينِكُمْ
 أَنْ تَنْصُرُوا الْخَصْمَ وَهَوَ الْخَصْمُ وَالْحَكْمُ
 تَخَاصِمُونَ عَلَى ضَعْفٍ، وَخَصْمُكُمْ
 وَهَوَ الْقَوِيُّ، عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَخْتَصِمُ
 تَوَحَّدُوا بِاسْمِ مِضْرٍ فِي تَجْهَمِهَا
 وَطَالَعُوا نَغْرَ مِضْرٍ كَيْفَ يَتَسِمُ
 سَعْدٌ أَرَادَكُمْ جِلْفًا - فَلَا قُسِمَتْ
 أَجْزَاؤُكُمْ - حُبِّ مِضْرٍ لَيْسَ يَنْقَسِمُ

(١) الرَّحْمُ: طائر من الجوارح يشبه النسور.

(٢) الْقِرْضَابُ: السِّيفُ الْبَاتِرُ. قَحَمُوا: قَطَعُوا.

سَيرُوا - لِكُلِّ أَخِي دُنْيَا لُبَانَةٌ (١)
 حَتَّىٰ إِذَا مَا رِيحْتُمْ مِصْرَ، فَأَقْتَسِمُوا
 تَارِيخَ مِصْرٍ وَلَوْ، مَا أَنْتَمَى شَمَمٌ
 إِلَّا إِلَيْهِ، وَحَابِي نَفْسَهُ الشَّمَمُ
 أُمُّ الْحِضَارَةِ، بَلْ مَجَلَىٰ أُشِيعَتِهَا
 يَوْمَ الْحِضَارَةِ لَمْ تَعْلُقْ بِهَا رَحِمُ
 تَفَهَّقَرَتْ دُونَهَا الْأَيَّامُ وَاجِفَةٌ
 فَهِيَ الشَّبَابُ، وَتِلْكَ الشَّيْبُ وَالْهَرَمُ

* * *

مَنْ مَبْلُغٌ مِصْرَ عَنَّا مَا نُكَابِدُهُ
 إِنَّ الْعُرُوبَةَ فِيمَا بَيْنَنَا ذِمَمُ
 رُكْنَانِ لِلضَّادِ، لَمْ تُفْطَمِ عُرَى لَهْمَا
 هُمْ نَحْنُ إِنْ رُزِئَتْ يَوْمًا وَنَحْنُ هُمْ

* * *

وقال بمناسبة الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي :

نَفَيْتَ عَنكَ الْعُلَى وَالظَّرْفَ وَالْأَدْبَا
 وَإِنْ خُلِقْتَ لَهَا - إِنْ لَمْ تَزُرْ حَلْبَا
 شَهْبَاءَ لَوْ كَانَتْ الْأَحْلَامُ كَأَسَ طَلِي
 فِي رَاخَةِ الْفَجْرِ كُنْتِ الزُّهْرَ وَالْحَبِيَا
 أَوْ كَانَ لِلَّيْلِ أَنْ يَخْتَارَ جَلِيَّتَهُ
 وَقَدْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ، لَا الشُّهْبَا

(١) اللبانة: الحاجة.

لَوْ أَنْصَفَ الْعَرَبُ الْأَحْرَارَ نَهَضَتْهُمْ
لَشِيدُوا لَكَ فِي سَاحَاتِهَا النُّصَبَا
لَكِنْ خُلِقْتَ لِأَمْرِ لَيْسَ يُدْرِكُهُ
مَنْ يَعْتَشُقُ الدُّلَّ أَوْ مَنْ يَعْبُدُ الرُّتْبَا

* * *

مَلَاعِبَ الصَّيْدِ مِنْ حَمْدَانٍ، مَا نَسَلُوا
إِلَّا الْأَهْلَةَ وَالْأَشْبَالَ وَالْقُضْبَا
الْخَالِعِينَ عَلَى الْأَوْطَانِ بَهْجَتِهَا
وَالرَّافِعِينَ عَلَى أَرْمَاجِهَا الْقَصْبَا
حُسَامُهُمْ مَا نَبَا فِي وَجْهِ مَنْ ضَرَبُوا
وَمُهُرُّهُمْ مَا كَبَا فِي إِثْرِ مَنْ هَرَبَا
مَا جَرَدَ الدَّهْرُ سَيْفًا مِثْلَ «سَيْفِهِمْ»
يُجْرِي بِهِ الدَّمَّ أَوْ يُجْرِي بِهِ الدَّهْبَا
رَبُّ الْقَوَافِي عَلَى الْإِطْلَاقِ شَاعِرُهُمْ
الْخُلْدُ وَالْمَجْدُ فِي آفَاقِهِ اصْطَحَبَا
سَيْفَانِ فِي قَبْضَةِ الشُّهْبَاءِ لَا تُلْمَا
قَدْ شَرَفَا الْعَرَبَ بَلْ قَدْ شَرَفَا الْأَدْبَا

* * *

عُرْسٌ مِنَ الْجِنِّ فِي الصَّحْرَاءِ قَدْ نَصَبُوا
لَهُ السَّرَادِقَ تَحْتَ اللَّيْلِ وَالْقُبْبَا
كَأَنَّهُ تَدْمُرُ الزُّهْرَاءَ مَارِجَةً
بِمِثْلِ لُسْنِ الْأَفَاعِي تَقْدِفُ اللَّهْبَا

أَوْ هَضْبَةٌ مِنْ حُرَافَاتٍ مُرَقَّعَةٌ
 بِأَعْيُنٍ مِنْ لَطْفٍ أَوْ مِنْ رُؤُوسٍ ظَلَمِي
 تَخَاصَرَ الْجِنُّ فِيهَا بَعْدَ مَا سَكَرُوا
 وَيَعَدُّ مَا اخْتَدَمَتْ أَوْتَارُهُمْ صَخَبًا
 فَأَفْرَعُ الرَّمْلَ مَا زَفُوا وَمَا عَزَفُوا
 فَطَارَ يَسْتَنْجِدُ الْقِيَعَانَ وَالْكَتَبَا
 تَكْشَفُ الصُّبْحُ عَنْ طِفْلِ وَمَارِدَةٍ
 لَهُ عَلَى صَدْرِهَا زَارٌ إِذَا غَضِبَا
 كَانَهُ الزَّبْتُ الرُّجْرَاجُ فِي يَدِهَا
 أَوْ خَفَقَةُ الْبَرْقِ إِمَّا اهْتَزَّ وَاضْطَرَبَا
 نَادَى أَبُوهُ - عَظِيمُ الْجِنِّ - عِثْرَتَهُ،
 فَأَقْبَلُوا يَنْظُرُونَ الْبِدْعَةَ الْعَجَبَا
 مَاذَا نُسَمِّيهِ؟ ... قَالَ الْبَعْضُ: صَاعِقَةٌ
 فَقَالَ: كَلَّا... فَقَالُوا: عَاصِفًا - فَأَبَى
 فَقَامَ كَالطُّورِ مِنْهُمْ مَارِدٌ لَيْسَ
 وَقَالَ: لَمْ تُنْصِفُوهُ اسْمًا وَلَا لَقْبًا
 سَنَبَعْتُ الْفِتْنَةَ الْكُبْرَى عَلَى يَدِهِ
 فَتَشْغَلُ النَّاسَ وَالْأَقْلَامَ وَالْكَتَبَا
 وَتَجْعَلُ الشُّعْرَ رَبًّا يَسْجُدُونَ لَهُ
 فَإِنْ غَوُوا فَلَقَدْ نَلْنَا بِهِ الْأَرَبَا

وَإِخْتَالَ غَيْرَ قَلِيلٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :
سَمِيْتُهُ الْمُتَنَبِّي فَاثْتَشَوْا طَرِبًا
وَذَلُّوا الْيَدَ حَتَّى كَادَ سَالِكُهَا
يَهْوِي بِهِ الرَّحْلُ لَا يَذْرِي لَهُ سَبِيًا
يَرَى السَّرَابَ عُبابًا هَاجَ زَاخِرُهُ
وَالرَّمْلَ يَلْتَجِفُ الْأَزْهَارَ وَالْعُشْبَا

* * *

إِيهِ أَخَا الْوَفْرَةِ السُّودَاءِ كَمْ مَلِكٍ
أَعَاضَكَ التَّاجَ مِنْهَا ، لَوْ بِهَا اعْتَصَبَا
طَلَبْتَ بِالشُّعْرِ دُونَ الشُّعْرِ مَرْتَبَةً
فَإِشَاءَ رَبِّكَ أَنْ لَا تُدْرِكَ الطَّلْبَا
إِذَنْ لِأَنْكَلَتِ أُمُّ الشُّعْرِ وَاجِدَهَا
وَعُظْلَ الْوَكْرِ لَا شَدْوًا وَلَا زَعْبَا
لَوْ لَا طِمَاحُكَ مَا غَنَيْتَ قَافِيَةً
بَوَاتُهَا الشَّمْسَ ، أَوْ قَلَدَتْهَا الْحِقْبَا
«خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا حَلِمْتَ بِهِ»
فَرُبُّ جِلْمٍ جَمِيلٍ أَوْرَثَ الْعَطْبَا

* * *

أَبَا الْفُتُوحَاتِ لَمْ تُزَجِّحِ الْخَمِيسَ لَهَا
وَلَا لَيْسَتْ إِلَيْهَا الْبَيْضَ وَالْيَلْبَا
تَأْتِي الشُّخُومَ فَتَلْقَاهَا مُهَلَّلَةً
مِثْلَ الْمَرِيضِ أَتَاهُ بِالشُّفَاءِ نَبَا

ما الفتح أهدى إليك الروض والسجبا
 كالفتح جر عليك الويل والحربا
 ولو فتحت بحد السيف لأنحطمت
 تيجان قوم، حشوها الظلم والرهبيا
 «ما كل ما يتمنى المرء يدركه»
 ويذكر الغاية القصوى وما طلبيا
 قد يؤثر الدهر إنساناً فيحرمه
 من يمنع الشيء أحياناً فقد وهبا
 يا مليس الحكمة الغراء روعتها
 حتى هتفنا: أوحياً قلت أم أدبا
 كأنما هي أضداء يرددها
 هذا إذا بث، أو هذا إذا عتبا
 قالوا استباح أرسطو، حين أعجزهم،
 وإنه استل من آياته النخبيا
 مهلاً، فما الدهر إلا فيض فلسفة
 يعود بالدر منه كل من دأبا
 من علم ابن أبي سلمى «حكيمته»
 وقس ساعدة الأمثال والخطبيا؟
 قالوا الجديد، فقلنا: أنت حجتة
 يا واهباً كل عصر كل ما خلبا
 أفكرة لم تكن فتقت برعمها
 وجدة لم تكن أمأ لها وأبا

بَعْضُ الْجَدِيدِ الَّذِي يَدْعُونَهُ أَدْبًا
يَمُوتُ فِي يَوْمِهِ، هَذَا إِذَا وَهَبَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ حُسْنُ الْوَجْهِ تَعْرِضُهُ
فَقَدْ ظَلَمْتَ بِهِ أَنْوَابَكَ الْقُشْبَا
عَفُوا نَبِيَّ الْقَوَافِي، أَيُّ نَابِغَةٍ
لَمْ يَزْرَعُوا حَوْلَهُ الْبُهْثَانَ وَالْكَذِبَا
مَنْعَتْ عَنْهُمْ ضِيَاءَ الشَّمْسِ فَأَنْحَجَبُوا
فَهَلْ تَلَوْتُمُهُمْ إِنْ مَزَقُوا الْبُحْجَبَا
أَضْرَمْتَ ثَوْرَتَكَ الْهَوِجَاءَ فَالْتَهَمَتْ
مِنَ الْقَرِيضِ الْهَشِيمَ الْغَثَّ وَالْخَشْبَا
وَعَالَ شِعْرُكَ شِعْرَ الْكَائِئِدِينَ لَهُ،
لِنَفْسِهِمْ حَفَرَتْ أَيْدِيهِمُ التُّرْبَا
حَتَّى رَجَعْتَ وَلِلْأَقْلَامِ هَلْهَلَةٌ
فِي كَفِّ أَيْلَافٍ مَنْ غَنَى وَمَنْ طَرِبَا...

* * *

يَا خَالِقًا جِيلَهُ، لَوْلَاكَ مَا عَرَفْتُ
لَهُ الْأَوَاخِرُ لَا رَأْسًا وَلَا ذَنْبَا
غَضِبْتَ لِلْعَقْلِ أَنْ يَشْقَى فَشَرْتَ لَهُ
بِمِثْلِ مَا أَنْدَفَعَ الْبُرْكَانُ وَأَصْطَخَبَا
هَلِ النَّبِيُّ إِلَّا ثَوْرَةٌ بَصَفَتْ
عَلَى التَّقَالِيدِ حَتَّى تَسْتَحِيلَ هَبَا
مَا ضَرَّ مُوقِدَهَا، وَالْخُلْدُ مَنْزِلُهُ،
إِذَا رَمَى نَفْسَهُ فِي نَارِهَا حَطْبَا...

حافظ إبراهيم

هو محمد حافظ إبراهيم (١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م) شاعر مصر القومي، ومدون أحداثها نيفاً وربع قرن. لُقّب بشاعر النيل، وطار صيته، واشتهر شعره ونثره. كان قويّ الحافظة، راوية، مرحاً، حاضر النكتة، بديع الإلقاء، كريم اليد في حالي بؤسه وشقائه. له ديوان شعريّ، وبعض المؤلفات النثرية.

من أهم قصائده في الهجاء قصيدتان، قال الأولى منهما في رثاء الشيخ محمد عبده، وقال الثانية في رثاء مصطفى كمال باشا، وفيما يلي نصهما:

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

سَلامٌ على الإسلامِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
 سَلامٌ على أَيامِهِ النُّضْرَاتِ (١)
 على الدِّينِ والدُّنْيَا، على العِلْمِ والجِجَا
 على البِرِّ والتَّقْوَى، على الحَسَنَاتِ
 لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى عَادِيَّ المَوْتِ قَبْلَهُ
 فَأَصْبَحْتُ أَخْشَى أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

(١) النضرات: ذوات الحسن والرواق.

فوا لهفي - والقبرُ بيّني ويّنه -
على نظرةٍ من تِلْكُمْ النُّظْرَاتِ (١)
وَقَفْتُ عَلَيْهِ حَاسِرَ الرَّأْسِ خَاشِعاً
كَأَنِّي جِيَالُ الْقَبْرِ فِي عَرَفَاتِ (٢)
لَقَدْ جَهَلُوا قَدْرَ الْإِمَامِ فَأُودِعُوا
تَجَالِيدَهُ فِي مُوجِشٍ بِقَلَاةِ (٣)
وَلَوْ ضَرَحُوا بِالْمَسْجِدَيْنِ لِأَنْزَلُوا
بِخَيْرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ خَيْرَ رُفَاتِ (٤)
تَبَارَكْتَ هَذَا الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ
أَيْتَرُكَ فِي الدُّنْيَا بَغَيْرِ حُمَاةٍ؟
تَبَارَكْتَ! هَذَا عَالِمُ الشُّرْقِ قَدْ قَضَى
وَلَأَنْتَ قَنَاةُ الدِّينِ لِلْغَمَزَاتِ (٥)
زَرَعْتَ لَنَا زَرْعاً فَأَخْرَجَ شَطْأَهُ
وَيَنْتَ وَلَمَّا نَجْتَنِ الثَّمَرَاتِ (٦)

(١) وا لهفي : كلمة يتحسّر بها على ما فات .

(٢) حاسر الرأس : عاربه . وحيال القبر : تلقاءه وأمامه .

(٣) تجاليد الإنسان : جسمه وبدنه . والقلّاة : الصحراء الواسعة .

(٤) ضرح للميت : حفر له ضريحاً . ويريد «بالمسجدين» : المسجد الحرام بمكة ، وبيت المقدس . ورفات الميت : ما بلي وتكسر من عظامه . يقول : لو أنهم حفروا بأحد المسجدين ضريحاً لهذا الجسم لكان حريّاً بذلك ، لأنه خير جسم يدفن في خير بقعة من الأرض .

(٥) قضى : مات . والقناة : الرمح . ولين القناة : كناية عن الضعف والوهن . ويريد «بالغمزات» : المطاعن الموجهة إلى الإسلام من أعدائه .

(٦) شطء الزرع : فراخه أو سنبله . وكثى بالزرع : عمّا قام به الفقيه من ضروب الإصلاح ، وابت : بعدت .

فواهاً له ألا يُصِيبَ مُوَفَّقاً
يُشَارِفُهُ وَالْأَرْضُ غَيْرُ مَوَاتٍ^(١)
مَدَدْنَا إِلَى الْأَعْلَامِ بَعْدَكَ رَاخِنَا
فَرُدَّتْ إِلَى أَعْطَافِنَا صَفِرَاتٍ^(٢)
وَجَالَتْ بِنَا تَبْغِي سِوَاكَ عُيُونُنَا
فَعُدْنَ وَأَثَرْنَ الْعَمَى شَرِقَاتٍ^(٣)
وَأَذَوَّكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَأَنْكَرُوا
مَكَانَكَ حَتَّى سَوَّدُوا الصَّفْحَاتِ^(٤)
رَأَيْتَ الْأَذَى فِي جَانِبِ اللَّهِ لَذَّةً
وَرُحْتَ وَلَمْ تَهْمُمْ لَهُ بِشِكَاةٍ
لَقَدْ كُنْتَ فِيهِمْ كَوَكْباً فِي غِيَابِهِ
وَمَعْرِفَةً فِي أَنْفُسِ نَكَرَاتٍ^(٥)
أَبْنَتْ لَنَا التَّنْزِيلَ حُكْمًا وَجِكْمَةً
وَفَرَّقْتَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلُمَاتِ^(٦)

(١) الضمير في «له» يرجع إلى الزرع. ويشارفه: يشرف عليه. والأرض الموات: الجديبة التي لا تنبت. يخشى ألا يجد الزرع من يتعهده بعد الفقيد مع خصوبة الأرض وقبولها لما يفرس فيها.

(٢) يريد «بالأعلام»: المشهورين من العلماء. والراح: جمع راحة، وهي الكف. والأعطاف: الخواصر. وصفرات، أي خاليات.

(٣) شقيقات: أي محمّرات من البكاء.

(٤) يشير بهذا البيت وما بعده إلى المطاعن التي كان يوجّهها أعداء الفقيد إليه، وينشرونها في بعض الصحف تشهيراً به، وتحقيراً من شأنه.

(٥) الغيابة: الظلمات.

(٦) يشير بهذا البيت إلى الدروس التي كان يلقيها الأستاذ الإمام في تفسير القرآن.

وَوَقَّعَتْ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْحِجَا
 فَأَطْلَعَتْ نُوراً مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ
 وَقَفَّتْ (لِهَانُوتُو) وَ(رِينَانَ) وَقَفَّةً
 أَمَدُكَ فِيهَا الرُّوحُ بِالنَّفَحَاتِ (١)
 وَحِفَّتَ مَقَامَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ
 فَخَافَكَ أَهْلُ الشُّكِّ وَالنُّزَعَاتِ (٢)
 وَكَمْ لَكَ فِي إِغْفَاءِ الفَجْرِ يَقْظَةً
 نَبَضْتَ عَلَيْهَا لَذَّةَ الهَجْعَاتِ (٣)
 وَوَلَّيْتَ شَطْرَ البَيْتِ وَجْهَكَ خَالِياً
 تُنَاجِي إِلَهَ البَيْتِ فِي الْخَلَوَاتِ (٤)
 وَكَمْ لَيْلَةً عَانَدْتَ فِي جَوْفِهَا الكَرَى
 وَنَبَّهْتَ فِيهَا صَادِقَ العَزَمَاتِ (٥)
 وَأَرَصَدْتَ لِبَاغِي عَلِيٍّ دِينَ أَحْمَدٍ
 شَبَابَةَ يَرَاعٍ سَاحِرِ النُّفُثَاتِ (٦)

(١) هانوتو: جبرائيل هانوتو السياسي المؤرخ الفرنسي. ولد في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٥٣ م، وقد كتب مقالات في الطعن على الإسلام. ورينان: هو أرنست رينان الفرنسي، ولد في ١٧ فبراير سنة ١٨٢٣ م، وقد كان قساً كاثوليكياً، وهو مشهور بمطاعنه في الدين الإسلامي كصاحبه السابق، وقد ردّ الفقيه على مطاعنهما. وتوفي رينان في سنة ١٨٩٢ م. والروح: جبريل.

(٢) النزعات: الوسواس.

(٣) الإغفاء: النوم. «ونقضت عليها» الخ، أي أنه خلع على اليقظة لذّة الهجعة فصار يتلذذ من اليقظة تلذذ الناس بالهجعة، أي النوم.

(٤) البيت: الكعبة.

(٥) الكرى: النوم. وصادق العزمات: من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي العزمة الصادقة.

(٦) أرصدت: أعددت وهيأت. واليراع: القلم. وشباته: سنه. ونفثات القلم: ما يفحص به من كلمات تشبيهاً لها بما ينفثه الساحر في العقد.

إِذَا مَسَّ خَدَّ الطُّرْسِ فَاضَ جَبِينُهُ
 بِأَسْطَارِ نُورٍ بَاهِرِ اللَّمَعَاتِ (١)
 كَأَنَّ قَرَارَ الْكَهْرَبَاءِ بِشَقِّهِ
 يُرِيعُ سَنَاهُ أَيَسْرُ اللَّمَسَاتِ (٢)
 فَيَا سَنَةً مَرَّتْ بِأَعْوَادِ نَعِيشِهِ
 لِأَنْتِ عَلَيْنَا أَشَامُ السَّنَوَاتِ
 حَطَمْتِ لَنَا سَيْفًا، وَعَطَلْتِ مِنبْرًا
 وَأَذْوَيْتِ رَوْضًا نَاضِرَ الزُّهْرَاتِ (٣)
 وَأَطْفَأْتَ نِيرَاسًا وَأَشَعَلْتَ أَنْفُسًا
 عَلَى جَمَرَاتِ الْحُزْنِ مَنطُوبَاتِ (٤)
 رَأَى فِي لِيَالِيكَ الْمُنْجَمُ مَا رَأَى
 فَأَنْذَرْنَا بِالْوَيْلِ وَالْعَثْرَاتِ (٥)
 وَتَبَّأَهُ عِلْمُ النُّجُومِ بِحَادِثِ
 تَبَيُّتْ لَهُ الْأَبْرَاجُ مُضْطَرِبَاتِ
 رَمَى السَّرَطَانَ اللَّيْثَ، وَاللَيْثُ خَادِرُ
 وَرُبُّ ضَعِيفٍ نَافِذِ الرَّمِيَاتِ (٦)

(١) الطرس (بالكس): الصحيفة التي يكتب فيها.

(٢) سناه: ضوؤه ونوره: يقول: كأن الكهرياء مستقرة في شق هذا القلم، فمجرد اللمس يظهر نوره.

(٣) حطمت: كسرت. وأذويت: أذبلت.

(٤) النبراس: المصباح.

(٥) يريد «بالمنجم»: أحد المنجمين، وكان قد تنبأ بوفاة الأستاذ الإمام في السنة التي توفي فيها، وكتب ذلك في تقويمه السنوي.

(٦) رمى السرطان... الخ، إشارة إلى أن المرحوم الإمام مات بالسرطان، وهو هذا الداء =

فأودى به ختلاً فمال إلى الشرى
 ومالت له الأجرامُ منحرفات^(١)
 وشاعت تعازي الشهب باللّمح بينها
 عن النيّر الهاوي إلى الفلوات
 مَشَى نَعْشُهُ يَخْتَالُ عَجْباً بَرِّه
 وَيَخْطِرُ بَيْنَ اللَّمَسِ وَالقُبُلَاتِ^(٢)
 تَكَادُ الدُّمُوعُ الجَارِيَاتُ تُقَلُّهُ
 وَتَذْفَعُهُ الأنْفَاسُ مُسْتَعِرَاتِ^(٣)
 بكى الشُّرْقُ فارتجت له الأرضُ رَجَّةً
 وضاعت عُيُونُ الكَوْنِ بالعَبَرَاتِ
 فِيهِ الهِنْدُ مَحْزُونٌ، وَفِي الصِّينِ جَاذِعٌ
 وَفِي (مِصْرَ) بَاكِ دَائِمُ الحَسْرَاتِ
 وَفِي الشَّامِ مَفْجُوعٌ، وَفِي الفُرْسِ نَادِبٌ
 وَفِي تُوسِ مَا شِئْتُ مِنْ زَفَرَاتِ
 بَكَى عَالَمُ الإِسْلَامِ عَالِمَ عَضْرِهِ
 سِرَاجِ الدِّيَاجِي هَادِمِ الشُّبُهَاتِ^(٤)

= المعروف. والليث خادر: أي والأسد في أجمته. ويطلق السرطان أيضاً على برج في السماء يقابله برج الأسد الذي أطلق الشاعر عليه لفظ الليث. واستعمل الشطر الأول في المعنيين، كما يدل عليه سياق في الكلام في الأبيات التالي.

(١) أودى به: ذهب به. والختل: الخداع. والأجرام: الأفلاك.

(٢) ربه: صاحبه.

(٣) تقله: تحمله. ومستعرات: مشتغلات من الحزن.

(٤) الدياجي: الظلمات.

مَلَاذَ عَيَايِلٍ، ثِمَالَ أَرَامِلٍ
 غِيَاثَ ذَوِي عُدْمٍ إِمَامَ هُدَاةٍ^(١)
 فَلَا تَنْصِبُوا لِلنَّاسِ تَمَثَالَ (عَبْدِهِ)
 وَإِنْ كَانَ ذِكْرِي حِكْمَةً وَثَبَاتٍ
 فَإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ يَضِلُّوا فَيُورِثُوا
 إِلَى نُورِ هَذَا التَّوَجُّهِ بِالسَّجْدَاتِ^(٢)
 فَيَا وَيْحَ لِلشُّورَى إِذَا جَدُّ جَدُّهَا
 وَطَاشَتْ بِهَا الْأَرَاءُ مُشْتَجِرَاتِ^(٣)
 وَيَا وَيْحَ لِقُلُوبِنَا إِذَا قِيلَ مَنْ لَهَا؟
 وَيَا وَيْحَ لِلخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ
 بَكَيْنَنَا عَلَى فَرْدٍ وَإِنْ بُكَاءَنَا
 عَلَى أَنْفُسٍ لِيَلَّهُ مُنْقَطِعَاتِ
 تَعَهَّدَهَا فَضْلُ الْإِمَامِ وَحَاطَهَا
 بِإِحْسَانِهِ وَالذَّهْرُ غَيْرُ مُوَاتِي^(٤)
 فَيَا مَنْزِلًا فِي (عَيْنِ شَمْسٍ) أَظَلَّنِي
 وَأَرْغَمَ حُسَايِي وَغَمَّ عُدَاتِي^(٥)

(١) الملاذ (بالفتح): الملجأ. وعيائل: جمع عَيْل (بتشديد الياء). وعيل الرجل: من يتكفل بهم ويمونهم ويقوم عليهم. وثمان الأراميل: من يقوم بأمرهن ويعينهن. والغياث: المغيث والمعين. والعدم: الفقر.

(٢) يورثوا: يثيرون. وقد رد الشاعر بهذا البيت على ما اقترحه بعضهم من إقامة تمثال للأستاذ الإمام.

(٣) يريد «بالشورى» مجلس شورى القوانين وكان الفقيه عضواً به. وطاشت: انحرفت عن القصد. ومشجرات: مشتبهات لا يتميز فيها الحق من الباطل.

(٤) حاطها: صانها وحفظها. والمواتي: الموافق المساعد.

(٥) عين شمس: صاحبة من ضواحي القاهرة معروفة، وكان فيها بيت الفقيه.

دَعَائِمُهُ التَّقْوَى وَأَسَاسُهُ الْهُدَى
 فِيهِ الْأَيْدِي مَوْضِعُ اللَّيْنَاتِ
 (١) عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ، مَا لَكَ مُوحِشًا
 عَبُوسَ الْمَغَانِي مُفْفِرَ الْعَرَصَاتِ (٢)
 لَقَدْ كُنْتَ مَقْصُودَ الْجَوَانِبِ أَهْلًا
 تَطُوفُ بِكَ الْأَمَالُ مُبْتَهَلَاتِ (٣)
 مَثَابَةَ أَرْزَاقِ، وَمَهِيْطَ حِكْمَةٍ
 وَمَطْلَعِ أَنْوَارٍ، وَكَنْزِ عِظَاتِ (٤)

رثاء مصطفى كامل باشا

مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني في مصر وزعيم المناوئين للاحتلال، ولد في القاهرة سنة ١٨٧٤ وكان خطيباً سياسياً مصقاً وصحافياً واسع النفوذ. واليه يرجع الفضل في إذكاء روح القومية المصرية وتوحيد صفوف المصريين للمطالبة بحقوقهم. توفي سنة ١٩٠٨، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره وكان يوم جنازته يوماً شعبياً مشهوداً، وقد عمّ الحزن عليه مصر بل جميع الأقطار العربية، ورثاه الأدب العربي في كل مكان. ومما قيل فيه قصيدة حافظ التالية:

أَيَا قَبْرِ هَذَا الضَّيْفِ آمَالُ أُمَّةٍ
 فَكَبُرَ وَهَلَّلَ وَالقَّ ضَيْفَكَ جَائِيَا

- (١) دعائم البيت: عمده. والأيدى: النعم. واللبنات زما يضرب من الطين للبناء، الواحدة لبنة.
 (٢) الموحش: الخالي الذي ليس به ساكن. ومعانيه: منازل التي كان ينزل بها ساكنوه، الواحد مغنى. وعرصاته: ساحاته.
 (٣) منزل أهل: عامر بأهله. ومبتهلات داعية متضرعة.
 (٤) المثابة: المرجع. أي إن الناس كانوا يرجعون إلى هذا البيت في طلب أرزاقهم.

عزيزٌ علينا أن نرى فيك (مُصْطَفَى)
 شهيدَ العَلَى في زَهْرَةِ العُمُرِ ذاويَا
 أيا قَبْرُ لَوْ أَنَا فَقَدْنَا وَحَدَهُ
 لَكَانَ التَّأْسِي مِنْ جَوَى الحَزَنِ شَافِيَا^(١)
 وَلَكِنْ فَقَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِفَقْدِهِ
 وَهَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ الدُّهْرُ ثَانِيَا
 فَيَا سَائِلِي أَيْنَ المَرْوَةِ وَالوَفا
 وَأَيْنَ الحِجَا والرَّأْيِ؟ وَيَحْكُ مَا هِيََا
 هَنِيئًا لَهُمْ فَلْيَأْمُنُوا كُلُّ صَائِحِ
 فَقَدْ أُسْكِتَ الصُّوْتُ الَّذِي كَانَ عَالِيَا^(٢)
 وَمَاتَ الَّذِي أَحْيَا الشُّعُورَ وَسَاقَهُ
 إِلَى المَجْدِ فَاسْتَحْيَا النُّفُوسَ البَوَالِيَا^(٣)
 مَدَحْتِكَ لَمَّا كُنْتَ حَيًّا فَلَمْ أُجِدِ
 وَإِنِّي أَجِيدُ اليَوْمَ فِيكَ المَرَاثِيَا
 عَلَيَّكَ، وَإِلَّا مَا لِيذَا الحَزَنِ شَامِلًا
 وَفِيكَ، وَإِلَّا مَا لِيذَا الشُّعْبِ بَاكِيَا^(٤)
 يَمُوتُ المَدَاوِي لِلنُّفُوسِ وَلَا يَرَى
 لَمَّا فِيهِ مِنْ دَاءِ النُّفُوسِ مُدَاوِيَا

(١) التأسى : التصبر والتعزي . وجوى الحزن : حرقته .

(٢) الضمير في «لهم» : للإنجليز .

(٣) استحياه أي أحياه والاستحياء (لغة) : الاستبقاء ، يقال : استحيا فلان فلاناً ، إذا أبقاه حياً .

(٤) عليك ، أي عليك الحزن ، وفيك ، أي فيك البكاء .

وَكُنَّا نِيَامًا حِينَمَا كُنْتَ سَاهِدًا
 فَأَسْهَدْنَا حُزْنَا وَأَمْسَيْتَ غَافِيَا
 شَهِدَ الْعَلَا، لَا زَالَ صَوْتُكَ بَيْنَنَا
 يَرِنُ كَمَا قَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ دَاوِيَا
 يَهَيْبُ بِنَا هَذَا بِنَاءُ أَقَمْتَهُ
 فَلَا تَهْدِمُوا بِاللَّهِ مَا كُنْتَ بَانِيَا (١)
 يَصْبِحُ بِنَا: لَا تُشْعِرُوا النَّاسَ أَنَّنِي
 قَضَيْتُ وَأَنْ الْحَيِّ قَدْ بَاتَ خَالِيَا (٢)
 يُنَاشِدُنَا بِاللَّهِ الْأَ تَفَرَّقُوا
 وَكُونُوا رِجَالًا لَا تَسْرُوا الْأَعَادِيَا
 فَرُوحِي مِنْ هَذَا الْمَقَامِ مُطَلَّةً
 تُشَارِفُكُمْ عَنِّي وَإِنْ كُنْتَ بَالِيَا (٣)
 فَلَا تَحْزِنُونَهَا بِالْخِلَافِ فَإِنَّنِي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِي الْخِلَافِ الدَّوَاهِيَا
 أَجَلُ، أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى الْخَيْرِ إِنَّا
 عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا فَنَمَّ أَنْتَ هَانِيَا
 بِنَاؤُكَ مَحْفُوظٌ، وَطَيْفُكَ مَائِلٌ
 وَصَوْتُكَ مَسْمُوعٌ، وَإِنْ كُنْتَ نَائِيَا

(١) أهاب به: صاح به ودعاه.

(٢) قضى: مات.

(٣) شارفه، نظر اليه من عل.

عَهْدُ نَبَاكَ لَا تَبْكِي وَتُنْكِرُ أَنْ يُرَى
 أَخُو الْبَأْسِ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ بَاكِيَا
 فَرَحُّصٌ لَنَا الْيَوْمَ الْبُكَاءُ وَفِي غَدِ
 تَرَانَا كَمَا تَهْوَى جِبَالاً رُوَاسِيَا
 فَيَا نَيْلُ إِنْ لَمْ تَجْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ
 دَمًا أَحْمَرًا لَا كُنْتَ يَا نَيْلُ جَارِيَا
 وَيَا (مِصْرُ) إِنْ لَمْ تَحْفَظِي ذِكْرَ عَهْدِهِ
 إِلَى الْحَشْرِ لَا زَالَ أَنْحِلَالُكَ بَاقِيَا
 وَيَا أَهْلَ (مِصْرٍ) إِنْ جَهَلْتُمْ مُصَابِكُمْ
 يُقُوا أَنْ نَجْمَ السَّعْدِ قَدْ غَارَ هَاوِيَا
 ثَلَاثُونَ عَامًا^(١) بَلْ ثَلَاثُونَ دُرَّةً
 بِجِيدِ اللَّيَالِي سَاطِعَاتِ زَوَاهِيَا
 سَتَشْهَدُ فِي التَّارِيخِ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
 فَتَى مُفْرَدًا بَلْ كُنْتَ جَيْشًا مُغَازِيَا

(١) توفي مصطفى كامل باشا عن أربعة وثلاثين عاماً، فالثلاثون في هذا البيت عدد تقريبي.

شفيق المعلوف

شاعر لبنانيّ، معاصر، ولد في زحلة سنة ١٩٠٥ م، وتثقف تحت إشراف أبيه العلامة عيسى، إسكندر المعلوف. أسهم بنشاط في «العصبة الأندلسية» التي أنشأها بعض الأدباء العرب المهاجرين إلى أميركا، وترأسها مدة من الزمن. له مؤلفات عديدة شعراً ونثراً، منها «رواية ليلي الأخيلية»، و«نداء المجاذيف»، وملحمة «عبر» التي تُرجمت إلى عدّة لغات أجنبية.

من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في شقيقه فوزي.

أَهْوَيْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ فِي التُّرْبِ
تَاجٌ تَدْحَرَجُ عَنْ جَبِينِ أَبِي
يَا مَوْتُ وَنِكَ! صَفَعْتَ أَيُّ أَبِ
شَيْخٍ بِعَبْءِ سِنِيهِ تَعَبِ
عَبَثًا تُفْتَشُّ تَحْتَ لِمْتِهِ
عَنْ شَعْرَةٍ سَوْدَاءَ لَمْ تَشِبِ (١)
وَالْأُمُّ! هَلْ غَصَصَ النُّوَى تَرَكَتْ
فِي صَدْرِهَا شَوْطًا لِمُنْتَهَبِ؟

(١) اللُّمَّةُ: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن.

وَاطُولَ حَسْرَتِهَا وَقَدْ وَلَدَتْ
 لِلْمَجْدِ لَا لِحَفَائِرِ التُّرْبِ!
 فَوَازِي، فَذَيْتِكَ، كُلُّ هَاتِفَةٍ
 فِي الصَّدْرِ تَنْطِقُ بِأَسْمِكَ الْعَذِيبِ
 بَاكَرْتُ قَبْرَكَ جِئِنَ رُوَعْنِي
 أَنْ الْقُبُورَ كَثِيفَةَ الْحُجُبِ
 فَوَدِدْتُ لَوْ كَفَّيَايَ بَعَثَرْتَا
 كَوْمَ الزُّهُورِ عَنِ الثَّرَى الرَّطِيبِ
 فَأَزِيلَ عَنْكَ ثَرَى لُفَّتَ بِهِ
 مَنْ كَانَ مِثْلَكَ لُفَّ بِالسُّحُبِ
 أَتَغُورُ تَحْتَ الْأَرْضِ زَوَاعَةً
 نَارِيَّةً قُدْسِيَّةً الْهَلْبِ!
 مَذْ ضَاقَ عَنْهَا الْكَوْنُ وَأَكْتَنَفَتْ
 طَرْفِيهِ مِنْ قُطْبٍ إِلَى قُطْبِ
 سَخَّرَتْ أَجْنَحَةَ النُّسُورِ لَهَا
 وَدَفَعَتْهَا وَثْبًا إِلَى الشُّهُبِ
 لَهْفِي عَلَى نَسْرِ تَوَغُّلَ فِي
 تَخْلِيْقِهِ يَوْمًا وَلَمْ يَوْبِ
 نَسْرُ جَرِيءِ الْوَثْبِ مُكْتَمِلُ
 رِيَشَ الْجَنَاحِ مُتَمِّمُ الْأَهْبِ
 ثَبَّتْ التُّوْقَلَ لَا يَسْفُ مَتَى
 وَطِيءَ الْغَمَامَ بِمَخْلَبِ صَلْبِ^(١)

(١) التوقل: الصعود. يسف يمر على وجه الأرض.

ذِيَاكَ فَوْزِي فَهَوَ لَيْسَ سِوَى
نَسْرِ وِرَاءَ الْغَيْمِ مُحْتَجِبِ
لَا هَذِهِ الرَّمَمُ الَّتِي فَشِلْتُ
وَتَبَاتُهَا فَهَوْتُ عَلَى الْهَضْبِ^(١)

* * *

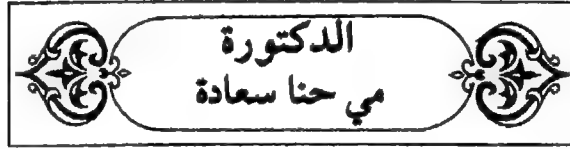
وقال بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال أخيه فوزي :

فَوْزِي، وَمَا لِي فِي الْخُطُوبِ يَدَانِ
مَا هَكَذَا الْأَخْوَانِ يَلْتَقِيَانِ
قَرَّبْتُ صَدْرِي لِلْعِنَاقِ فَلَمْ أَقْعُ
إِلَّا عَلَى قِطْعٍ مِنَ الصَّوَانِ
هَشَّتْ لَكَ الْأَزْمَانُ قَبْلَ وِلَادِهَا
فَأَخْلَعُ زَمَانًا وَأَتَشِحُّ بِزَمَانِ^(٢)
لِلَّهِ نَصْبُكَ فَهَوَ أَخْلَدُ بُرْدَةٍ
فِي الْأَرْضِ يَنْسُجُهَا الْخُلُودُ الْفَانِي^(٣)
نُصِبُ خَفَضْتُ لَهُ الْجُفُونِ كَأَنَّمَا
نُصِبْتُ جِجَارَتُهُ عَلَى أَجْفَانِي

(١) الرمم: ج رمة، وهي ما يلي من العظام.

(٢) هشت: تبسمت وارتاحت، نشطت.

(٣) النصب: الصنم، وهنا التمثال. بردة: ثوب مخطط يلتحف به.



أديبة لبنانية، وُلدت في أميون (لبنان الشمالي) سنة ١٩١٦ م، ونالت شهادة التخصص بأمراض النساء والتوليد سنة ١٩٤٢ م. مارست، ولا تزال، الطبّ والجراحة النسائية في طرابلس. لها ديوان شعريّ بعنوان «أوراق العمر».

لُقبت، بحقّ، شاعرة الأمومة في الأدب العربيّ، نظراً إلى قصائدها الرائعة التي قالتها في أبنائها، وخاصّة في ولدها الشهيد «نقولا» الذي استشهد في الحرب اللبنانية (١٩٧٥ م). تقول في إحدى قصائدها لابنها «حنا»:

لو عَلَى عَيْنِي بِنَعْلَيْهِ مَشَى
لَمْ أَقُلْ يَوْمًا لَهُ: يَا ابْنِي تَأَنَّى

يمتاز رثاؤها لابنها «نقولا» باللوعة الحارة، والعاطفة المتدفّقة، فهي تتمثّل ابنها أبداً، وتخاطبه، وتصوّره بحبّ أموميّ يفوق، في صدقه والتباعد كلّ وصف. وفيما يلي بعض النماذج منه:

الذكريات التائهة!

تَلَاقَتْ ذِكْرِيَّاتُ فِي خَيَالِي
أَتَنْسَى الذُّكْرِيَّاتُ؟ مِنْ الْمَحَالِ

يُورِّقُنِي التَّسَاوُلُ عَن فِرَاعٍ
فِرَاعٍ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيَالِي
وَطَبِّي لَا يُجِيبُ وَلَيْسَ يَدْرِي
وَكُتَّبِي لَا تَرُدُّ عَلَي سُؤَالِي
أَلَا فَاثْمَالًا فِرَاعًا فِي عُيُونِي
وَفِي رُوحِي وَعُذُّ مِثْلِ الْهِلَالِ
تَشَوَّرُ الذُّكْرِيَّاتُ تَمُرُ سَكْرَى
عَلَى عَيْنِي عَلَى فِكْرِي بَوَالِي
فَكُنْتُ تَعُودُ مِن بَعْدِ افْتِرَاقِي
وَتَحْمِلُنِي عَلَى وَهَجِ الْوَصَالِ
يُزْنَرُنِي ذِرَاعُكَ يَا نِقُولًا
عَلَى خَضْرِي تَشُدُّ بِلَا كِلَالِ
تَدُورُ الْبَيْتَ بِي فَرَحًا وَشَوْقًا
تَمِيلُ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الشَّمَالِ
وَفُسْطَانِي يُفْتَحُ فِيهِ وَرْدٌ
وَتَرْقُصُ فِي الْهَوَاءِ خِيوطُ شَالِي
فَأَثْمَلُ فَوْقَ صَدْرِكَ مِن عَيْبِ
وَأَضَعُدُ لِلسَّمَاءِ وَلَا أُغَالِي
وَتَهْمِلُ كُلَّ حَسَنَاءٍ أُمَامِي
تَعْتَرُّ وَهِيَ تَمْشِي فِي ظِلَالِي
تَصْعَعُدُ إِذْ تَرَكَ تَنْهَدَاتِ
تَغَارُ مِنَ الْعِنَاقِ وَمِن دَلَالِي

من قال غاب؟

طال البعادُ أما قد حان لُقيانا
أيا نقولا، فإنَّ البُعدَ أوهانا
إن كنتُ أبدو أمامَ الناسِ هادئةً
في قلبِ أمك قد فجرتَ بركانا
من قال: قد غاب؟ كلاً لم يغبَ أبداً
أراه في مُقلَّةِ الإنسانِ إنسانا
أراه في كُلِّ قوميٍّ غداً بطلاً
أراه في وطنِ الأحقادِ قُرباناً
أراه في الطَّبِّ في كُتبي على شفتي
أراه في زهراتِ الوردِ ألواناً
أراه في الطيرِ في الأشجارِ باسقةً
أراه في نسماتِ الفجرِ ألحاناً
أراه حولي في رقتي... يُداعِبُنِي
وفي سريري عندَ الصُّبحِ أحياناً
يُسِرُّ لِألمٍ شكواه بلا وجَلٍ
دوماً، وَيَشْرَحُ إشكالاً وأشجاناً
إني سادعو ابنتي «ميا» - يُفاجئني -
حُباً ومكرمةً مِنِّي وعرفاناً!
إنَّ الخلودَ، أيا ابني، ليس يُشغلُنِي
رَضِيْتُ فيكم، وكان القلبُ ملاناً

شُكْرًا حَبِيبِي لَقَدْ أُعْطَيْتَنَا بَطْلًا
 بِهِ نَسْتِيهِ، وَقَدْ رَفَعْتَنَا شَانَا
 هَلْ قَدْ تَرَكْتِكَ يَوْمًا؟ كَيْفَ تَتْرُكُنِي
 تَكَلَى لِأَنْسُجَ لِلْأَيَّامِ أَحْزَانَا؟
 أَصَفُّ حَوْلَكَ وَرَدًّا كُنْتَ تَعَشَّقُهُ
 وَأَقْرَأُ الْكُتُبَ إِنْجِيلًا وَقُرْآنَا
 كَمْ قَدْ طَلَبْتُ وَكَمْ صَلَّيْتُ جَائِيَةً
 لِيَخْمِي إِلَهُ أَبْنَطَالًا وَشَجَعَانَا
 مَضَى شَهِيدًا فَلِمَ أَبْكِي عَلَيْهِ؟ لَقَدْ
 رَدَّ الْبُودِيْعَةَ لَمَّا السُّوقُ قَدْ حَانَا
 قَدْ كَانَ يَمَلُّ «أَمِيُونًا» بِبَهْجَتِهِ
 وَالْيَوْمَ يَمَلُّ كُلُّ الْكُونِ إِيْمَانَا

أَيْلُولُ لَيْسَ بِقَادِمٍ

الْيَوْمَ لِي بَيْتِي وَلِي وَحْدِي
 وَلِي الدَّمُوعُ نَدَى وَلِي وَجْدِي
 الدَّمْعُ لَا لَتَفْجَعُ أَوْ حَسْرَةً
 لِلذُّكْرِيَّاتِ فَمَاؤَهَا وَرَدِي
 إِنِّي لِأَذْكَرُ يَوْمَ كُنْتُ عَلِيلَةً
 وَأَرَدْتُ أَنْ تَمْضِيَ مَعَ الْوَالِدِ
 فَصَدَفَتْ عَنِ كُلِّ الرِّفَاقِ وَلُغْبِهِمْ
 وَبَقِيَتْ قَرِيبِي رَافِضًا بُعْدِي

كَمْ قَدْ حَرَصْتُ عَلَىٰ هُنَاكَ مُدَلِّي
مَنْ ذَا يَكِيلُ لَكَ الْهِنَا بَعْدِي؟
إِنِّي جَمَعْتُ الْيَاسَمِينَ أَصْوَعُهُ
عَقْدًا لِحَبِيدِكَ حَامِلًا وَجَدِي
وَيُرَادُ مِنِّي أَنْ أُغَيِّرَ مَلْبَسِي
تَغْيِيرَ لَوْنِ الثُّوبِ هَلْ يُجَدِي؟
مَاذَا يُبَدِّلُ أَسْوَدًا أَوْ أَبْيَضًا
فِي الْقَلْبِ مَا فِيهِ مِنَ الْوَقْدِ!
هَذِي قَمِيصُكَ قَدْ لَبَسْتُ أَمَا تَرَى
فَكَأَنَّهَا خَيْطُتُ عَلَىٰ قَدِّي
رَكَضْتُ إِلَيَّْ وَعَانَقْتَنِي! هَلْ دَرَّتْ
أَنْتِي حَبِيبَةٌ هَذِهِ الْبُرْدِ
حَتَّىٰ قَمِيصُكَ هَذِهِ الْخُرْسَا حَكَتْ
لِي قِصَّةَ الْأَبْطَالِ وَالْمَجْدِ!
أَتَزُورُ فِي أَيْلُولِ أُمِّكَ مُهَجَّتِي؟
أَهْنَاكَ وَضَلَّ بَعْدَ ذَا الصَّدِّ؟
إِنْ لَمْ تَعُدْ، أَيْلُولُ لَيْسَ بِقَادِمٍ
سَيَّانُ يَخْفِي الزُّهْرَ أَوْ يُبْدِي

نزار قباني

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطيني الأصل، سوري المولد والجنسية، لبناني الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٢٣ م / ١٣٤٢ هـ، وتخرّج في الجامعة السورية بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسي ما بين السنة ١٩٤٥ م، والسنة ١٩٦٦ م. يُعتبر من كبار المجدّدين في الأدب العربي المعاصر. لُقّب بـ«شاعر المرأة»، واشتهر بالغزل، لا بالرثاء، ولكن له قصيدة طويلة قالها في رثاء زوجته العراقية بلقيس عندما قُتلت بانفجار في بيروت، وهي تدلّ على أنّ عبقرية الشاعر لا تقتصر على ضرب من ضروب الفنّ الغنائيّ، فالمُبدع المُجيد يُبدع ويُجيد في أيّ فنّ غنائيّ عزف على أوتاره. وفيما يلي بعض المقاطع من هذه القصيدة.

شُكراً لَكُمْ... .

شُكراً لَكُمْ

فَحَبِيبَتِي قُتِلَتْ، وصار بوسِعِكُمْ
أَنْ تَشْرَبُوا كَأْساً على قَبْرِ الشَّهِيدَةِ

وَقَصِيدَتِي اغْتِيلَتْ... .

وَهَلْ مِنْ أُمَّةٍ في الأَرْضِ

إِلَّا نَحْنُ تَغْتَالُ الْقَصِيدَةَ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

كَانَتْ أَجْمَلَ الْمَلَكَاتِ فِي تَارِيخِ بَابِلَ

بَلْقَيْسُ . . .

كَانَتْ أَطْوَلَ النَّخْلَاتِ فِي أَرْضِ الْعِرَاقِ

كَانَتْ إِذَا تَمْشِي

تُرَافِقُهَا طَوَاوِيسُ . . .

وَتَتَّبِعُهَا أَيَّامُ

بَلْقَيْسُ . . . يَا وَجِعِي . . .

وَيَا وَجَعَ الْقَصِيدَةِ حِينَ تَلْمَسُهَا الْأَنَامِلُ

هَلْ يَا تُرَى . . .

مِنْ بَعْدِ شَعْرِكَ سَوْفَ تَرْتَفِعُ السَّنَابِلُ؟؟

* * *

يَا نَيْنَوَى الْخَضِرَاءِ

يَا عَجْرِيَّتِي الشُّقْرَاءِ

يَا أَمْوَاجِ دِجْلَةَ

تَلْبَسُ فِي الرَّبِيعِ بِسَاقِهَا

أَحْلَى الْخَلَاحِلِ

* * *

بَلْقَيْسُ!

لَا تَتَّعِبِي عَنِّي

فَإِنَّ الشَّمْسَ بَعْدَكَ
لَا تُضِيءُ عَلَى السَّوَاجِلِ

* * *

بَلْقَيْسُ
أَيْتَهَا الشُّهَيْدَةُ . . وَالْقَصِيدَةُ
وَالْمُطَهَّرَةُ النَّقِيَّةُ . . .
سَبَأٌ تَفْتَشُ عَنْ مَلِيكَتِهَا
فَرُدِّي لِلجَمَاهِيرِ التَّحِيَّةُ

* * *

الموتُ في فَنجَانِ قَهَوْتَنَا . .
وفي مِفْتَاحِ شِقْتِنَا . . .
وفي أَزْهَارِ شُرْفَتِنَا . . .
وفي وَرَقِ الجِرَائِدِ . . .
والحروفِ الأَبْجَدِيَّةِ . . .

* * *

بَلْقَيْسُ . . .
يا عِطْرًا بِذَاكَرْتِي
ويا قَبْرًا يُسَامِرُ في الغَمَامِ
قَتْلُوكِ، في بِيروتِ، مِثْلَ أَيِّ غَزَالَةٍ
مِنْ بَعْدِهَا . . قَتَلُوا الكَلَامَ

* * *

بَلْقَيْسُ

مُشْتَاقُونَ . . . مُشْتَاقُونَ . . . مُشْتَاقُونَ .

وَالْبَيْتُ الصَّغِيرُ .

يُسَائِلُ عَنْ أَمِيرَتِهِ الْمُعْطَرَةَ الذُّيُولُ

نُصْغِي إِلَى الْأَخْبَارِ . . الْأَخْبَارُ غَامِضَةٌ

وَلَا تَرَوِي فُضُولُ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

مُدْبَحُونَ حَتَّى الْعَظْمِ

وَالْأَوْلَادُ لَا يَدْرُونَ مَا يَجْرِي

وَلَا أُدْرِي أَنَا مَاذَا أَقُولُ

* * *

هَلْ تَقْرَعِينَ الْبَابَ بَعْدَ دَقَائِقِ

هَلْ تَخْلَعِينَ الْمَعْطَفَ الشُّتَوِيَّ

هَلْ تَأْتِي بِاسْمَةٍ . . .

وَنَاضِرَةً . .

وَمُشْرِقَةً كَأَرْهَارِ الْمُحْقُولِ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

إِنَّ زُرُوعَكَ الْخَضْرَاءَ

مَا زَالَتْ عَلَى الْحَيْطَانِ بَاكِئَةً

وَوَجْهَكَ لَمْ يَزَلْ مُتَنَقِّلاً

بين المرايا والستائر
حتى سجاتك التي اشعلتها
لم تنظفني
ودخانها
ما زال يرفض ان يسافر

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

مَطْعُونُونَ مَطْعُونُونَ فِي الْأَعْمَاقِ
وَالْأَحْدَاقِ يَسْكُنُهَا الدُّهُونُ
بَلْقَيْسُ . . .

كَيْفَ أَخَذْتَ أَيَّامِي وَأَحْلَامِي
وَأَلْغَيْتِ الْحَدَائِقَ وَالْفُصُولَ؟!!

* * *

يا زوجتي . .

وحبيبتي . . وقصيدتي . . وضياء عيني
قد كنت عصفوري الجميل
فكيف هربت يا بلقيس مني؟

* * *

بَلْقَيْسُ . .

هذا موعد الشاي العراقي المعطر
والمعتق كالسلافة
فمن الذي سيوزع الأقداح، أيتها الزرافة

وَمَنْ الَّذِي نَقَلَ الْفُرَاتَ لَبَيْتِنَا
وَوَرُودَ دِجْلَةَ وَالرَّصَافَةَ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

يَا بَلْقَيْسُ . . .

يَا بَلْقَيْسُ . . .

كُلُّ غَمَامَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ

فَمَنْ تُرَى بَيْكِي عَلَيَّ

بَلْقَيْسُ . . . كَيْفَ رَحَلْتَ صَامِتَةً

وَلَمْ تَضْعِي يَدَيْكَ عَلَى يَدَيَّ؟

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

أَسْأَلُكَ السَّمَاحَ، فَرُبَّمَا

كَانَتْ حَيَاتُكَ فِدْيَةً لِحَيَاتِي

إِنِّي لَأَعْرِفُ جَيْدًا

أَنَّ الَّذِينَ تَوَرَّطُوا فِي الْقَتْلِ كَانَ مُرَادُهُمْ

أَنْ يَقْتُلُوا كَلِمَاتِي

* * *

نَامِي بِحِفْظِ اللَّهِ، أُيُّهَا الْجَمِيلَةَ

فَالشُّعْرُ بَعْدَكَ مُسْتَجِيلٌ

وَالْأُنُوثَةُ مُسْتَجِيلَةٌ

سَتَظَلُّ أَجْيَالٌ مِّنَ الْأَطْفَالِ
تَسْأَلُ عَنِّ ضَفَائِرِكَ الطُّوِيلَةَ
وَتَظَلُّ أَجْيَالٌ مِّنَ الْعُشَاقِ
تَقْرَأُ عَنكَ آيَتَهَا الْمَعْلَمَةَ الْأَصِيلَةَ . . .

جورج غانم

جورج غانم، شاعر لبناني، ولد في بسكتا سنة ١٩٤٣، ونشأ على حُب الشعر في بيت والده الشاعر عبد الله غانم. عمل في التدريس والإدارة والصحافة، وحصل ثقافة فنية متنوعة من رمزية إلى رومنطيقية إلى كلاسيكية. يتميز أدبه بأناقة الأسلوب وفرح الأجواء، وتنوع المواضيع. من مؤلفاته: «أزهار في الخريف»، «نداء البعيد»، و«أصوات وراء الحدود».

من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في والده.

والدي

١ - وَعَدْنَا، وَشَدَّ الْفِرَاعُ عَلَيْنَا
وَأَقْفَرَتِ الْأَرْضُ أَنَّى مَشِينَا
وَجَفْنَا نُرَدُّدُ اسْمَكَ جِيفْنَا نُرَدُّدُ شِعْرَكَ
فَذِكْرَاكَ نَهْرٌ مِنَ النَّارِ يَجْرِي إِلَيْنَا
وَحِينَ عَرَفْنَاكَ أَنْكَ أَمْسَيْتَ وَحَدَّكَ
بَكِينَاكَ حَتَّى بَكِينَا خُلُودَكَ بَعْدَكَ.

٢ - وَمَرَّ زَمَانٌ
غَيُومٌ وَرِيحٌ وَغُرْبَةٌ

ليالٍ تَطَاوَلُ فِيهَا الثُّوَانُ
ولا صوتَ في بيتنا لا ضيَاء
نَسَجْنَا على كلِّ عَيْنٍ مساءً
ولم يَبْقَ إِلَّا خيَالُكَ نَقْبَعُ قَرَبَهُ
وكان دخانٌ .

٣ - أبي أين وجهك أين يراعك
هجرت يراعي مَذَّ غَابَ عَنَّا شِرَاعُكَ
وأين الأحاديثُ بيني وبينك
نُرَدِّدُهَا في العَشِيِّ
وأبقى لعينيك هذا الصَّبِيِّ
يُدْعِغُ حَضْنَكَ
بَقَايَاكَ في البيتِ ثوبٌ عتيقُ
حذاء جواربٍ .

٤ - عصاً لا تُمَسُّ
دفاثرٌ نثرٍ وشعرٍ
غبارٌ سرابٌ وحزنٌ
بقاياك جرحٌ بقلبي وقلبِ الشَّبَابِ
وفي قلبِ أمي جراحُ
بقاياك فينا رياحُ .

٥ - أبي أين صوتك أين الحنانُ
قطعتُ تُخومَ الزَّمانِ

وأَمسى مَكَانَكَ ذاكَ المَكَانَ
نُرجِعُ ذِكرَكَ لِحناً وَيُخْتَقُ لِحْنُ
أبي مِن بَقاياكَ نَحْنُ
شبابٌ يُعيدُ الى العِمرِ وَجَهَ القُتُوءِ
أبي صِرتَ في كُلِّ فِكْرٍ نُبوَّةِ .

٦ - أُنادِيكَ أَنّا أُنادِيكَ أَمَسّا

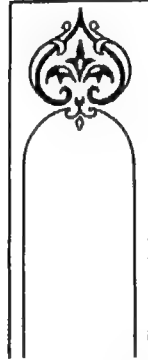
لُتُشرقَ فِوقَ نِهارِي شِمسًا
لُتُنبتَ في رَاحِتي زُروعًا
وَتُوجدَ في مُقلَتي الرِّيبَعًا
فِيخِصبَ تُربُ . . .
تُعلِّمني كِيفَ أُعطي وَكِيفَ أُحِبُّ
تُعلِّمني كِيفَ يَحيا الأباةُ
وماذا تُريدُ الحِياةُ
أبي عِندما تتردى الشُّرورُ
تُعلِّمني أَيَّ شَعْبٍ أُثيرُ



نُصبُ مدفني
إغريقي
في رودس

اعتاد الإغريق وضع أنصاب رخامية على مدافن موتاهم تكريماً لهم وحفظاً
لذكرهم . وتتكون هذه الانصاب من حجر مستطيل يزيّنه حفر ناتئ يمثّل الميت مع أحد
أفراد عائلته في موقف حنان وعطف .

يحمل هذا النصب في أعلاه اسم كراتيو وتيمارستا وهو يمثّل شخصين في وقفة
جانبيّة، يد كلّ منهما على كتف الآخر في موقف تعزية وتأسّ . وقد أظهر النحات طبّات
الثوب الإغريقيّ بكلّ أمانة ودقّة، وأوحى بالهدوء والأسى المناسبين للموضوع ولموقع
الحجر المدفنيّ .



مُتَفَرِّقَاتُ
فِي الرِّثَاءِ



(١) مَرِّيَّةُ الأَيَّامِ الحَاضِرَةِ

الرَّيْحُ ثَقِيلَةٌ عَلَيْنَا، وَرَمَادُ أَيَّامِنَا عَلَى الأَرْضِ. نَلْمَحُ رُوحَنَا فِي بَرِيقِ شَمْسَةٍ أَوْ عَلَى طَرَفِ خُوْدَةٍ، وَخَرِيفُ المَمَالِحِ يَنْتَاقِرُ فَوْقَ جِرَاحِنَا، وَمَا مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ نَبْعٍ .

اللَّيْلُ يَتَخَثَّرُ^(١)، وَفَوْقَ جُثَثِ العَصَافِيرِ تَدِبُ^(٢) طِفْوَلَةُ النِّهَارِ، وَالبَحْرُ يُغْلِقُ فِي وَجْهِهَا سَرِيرَهُ، وَعَبَثًا يَتَزَحَّزَحُ البَابُ المَوْصَدُ^(٣). وَنَصْرُحُ. وَنَحْلُمُ بالبُكَاءِ، وَلَا دَمْعَ فِي العَيُونِ، وَنَلْوِي أَعْنَاقَنَا تَحْتَ الرِّيحِ وَالصَّقْبِجِ . . .

وَنَمْضِي، صَدُورُنَا إِلَى البَحْرِ، وَفِي كَلِمَاتِنَا يَرْقُدُ نَحِيبٌ^(٤) عَصْرِ آخِرٍ، وَكَلِمَاتُنَا لَا وَرِيثَ لَهَا، نَعَانِقُ جُزُرَ الوَحْدَةِ، نَشْمُ الغَرَابَةَ البِكْرَ فِي قَعْرِ الهَاوِيَةِ، وَنَسْمَعُ مَرَاكِبَنَا تَرْسِلُ خُوَارَهَا^(٥) اليائِسَ، وَاليائِسُ هَلَالٌ طَالَعٌ، وَالشَّرُّ فِي طِفْوَلِيهِ. وَعِنْدَ مَسَاقِطِ الأنْهَرِ فِي بَحْرِنَا المَيِّتِ، يَلْدُ اللَّيْلُ أَعْيَادًا وَعِرَائِسَ مِنَ الزَّبَدِ وَالرَّمْلِ، مِنَ الجَرَادِ وَالرَّمْلِ.

(١) يتخثر: يتراكم الدم ويفسد.

(٢) تدب: تزحف ببطء.

(٣) الموصد: المقفل.

(٤) نحيب: بكاء وعويل.

(٥) الخوار: صوت الثور.

ونمضي في مُنحدراتٍ منَ الوحلِ والنَّحيبِ، والأرضُ تنزفُ دمًا في
خواصِرنا، الحياةُ هزيلةٌ في هذه الدَّقائقِ منَ العمرِ، النَّهارُ لا حوَّاجِبَ له،
وليسَ للشمسِ أهدابٌ طويلةٌ، وتحتَ أقنعةِ الجليدِ والرَّمْلِ نكبَرُ ويكبُرُ
النَّاسُ.

أدونيس
(بتصرف)

رثاء تلميذة

قال الياس عشي في رثاء تلميذة له سقطت بشظية في الحرب اللبنانية الأخيرة .
 ١ - عندما يصير الوطن نَفَقًا، تُلغى المسافة بين وَجِهٍ وَوَجِهٍ، وَتَنْطَفِئُ العيون، وَتُصْبِحُ غربةَ الإنسانِ مشابهةً لُغْرَبَةِ الوَطَنِ، وَلُغْرَبَةِ الموتِ.

٢ - عِنْدَمَا قالوا: لارا نَجَحَتْ لم أَنْفَعِلْ، فنجاح لارا كان واضحاً كوضوح ائْتِسامِها المزروعةِ في أرجاءِ الصَّفِّ، وعندما قالوا: لارا ماتت، لم أَبْكُ، فَمَوْتُ الياسمينِ قَدَرٌ لِيَبْقَى السماءُ مُعْطَرَةً، وموتُ الياسمينِ لا يَتوقَّفُ عِنْدَ سورِ الحديقةِ، بل هو مَوْتُ نَبويٍّ لَهُ نَكْهَةُ الطفولةِ التي لم يَرَحْمَها أَحَدٌ في هذه السَّنواتِ العِجافِ. كيف تموتين، يا لارا، بشظيةٍ وأحلامك كانت كالورد؟

٣ - تَأْكُدي يا لارا أَنَّ مَوْتَك أَلغى عَقْلي، وَحوَّلني في لِحْظَةٍ إلى مشاعرٍ متناقضةٍ مَفكَّكةٍ لا ضابطٍ لها سوى ذكري عامين كنتِ فيهما تلميذتي، وسأبقى مع بقيةِ الأساتذةِ والزملاءِ نذكر عينيكِ الوامضتين وشعركِ المجدول كأنه الشلال، وغمَّازتين على الوجهِ تُسامرينِ بهما الحقول.

٤ - وَيَعَدُّ شَهْرٍ نَعُودُ إلى المَدْرَسَةِ دونكِ، وَسَنَفْقِدُكِ يا لارا، وَسَنُحَاوِلُ الأَنْبكي، فَأَنْتِ تَكْرَهينَ البكاءَ، لَكِنَّا نَعِدُكِ بأنَّكَ سَتَبْقينِ في قلوبنا جميعاً: جديلةً، وغمَّازتين، وشِعْراً. الياس عشي

متفرقات رثائية

إجرح القلب واسق شعرك منه
فدم القلب خمرة الأفلام

الياس أبو شبكة

* * *

نصيبك في حياتك من حبيب
نصيبك في منامك من خيال
رمانى الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابني سهام
تكسرت النصال على النصال

المتنبي

* * *

قال ابن الجهم يرثي أولاده:

فارقتكم، وحييت بعدكم
ما هكذا كان الذي يجب

إِنِّي لِأَلْقِي النَّاسَ مُعْتَذِرًا
مِنْ أَنْ أَعِيشَ، وَأَنْتُمْ غُيْبُ

* * *

قال أمين نخلة في رثاء شبلي الملائط:
إِنْ تَرَى الرَّجْفَ جِينًا فِي أَنَامِلِهِ
فَذَاكَ مِنْ طَوْلِ مَسِّ الْوَحْيِ لِلْقَلَمِ

* * *

وَأَعُوذُ بِالذُّكْرَى عَلَى عَهْدِ لَنَا
رَفَّتْ عَلَيْهِ نَضَارَةٌ وَسَنَاءُ
أَيَّامِ نَضْحَكِ وَالْمُنَى مَعْسُولَةٌ
وَلِكُلِّ شَيْءٍ رَوْحٌ وَرَوَاءُ
نَحْتَالُ فِي رَوْضِ الشَّبَابِ وَبُرْدِهِ
وَنَخَالُ أَنَا وَحَدَنَّا الْأَحْيَاءُ
محمد كوسا

* * *

روى الأصمعي أنه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدها بقبر زوجها وهي
تبكي، وتقول:

خَدِّي تَقِيكَ خُشُونَةَ اللَّحْدِ
وَقَلِيلَةَ لِكَ، سَيِّدِي، خَدِّي
يَا سَاكِنَ الْقَبْرِ الَّذِي بِوَفَاتِهِ
عَمِيَّتْ عَلَيَّ مَسَالِكُ الرَّشْدِ
اسْمَعْ أَبُثُّكَ عِلَّتِي فَلَعَلَّنِي
أُطْفِي بِذَلِكَ حُرْقَةَ الْوَجْدِ

* * *

تزوِّج الأمين بفتاة، وتوفِّي عنها قبل أن يبني بها، فندبته ندباً حاراً،
ومن قولها فيه :

أَبِيكَ لَا لِلنُّعِيمِ وَالْأُنْسِ
بَلْ لِلْمَعَالِي وَالرُّمَحِ وَالْفَرَسِ
أَبِي عَلَى سَيْدٍ فُجِعْتُ بِهِ
أَزْمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ الْعُرْسِ

* * *

من أروع ما رُئي به الزوجات وأشجاء قول محمد بن عبد الملك
الزيات في زوجته :

أَلَا مَنْ رَأَى الطُّفْلَ الْمُفَارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ^(١)
رَأَى كُلَّ أُمَّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمَّهِ
يَبْتَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَتَّجِيَانِ
وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تَحْتُهُ
بَسَلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
فَلَا تَلْحَيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا
أُدَاوِي بِهَذَا الدَّمْعِ مَا تَرِيَانِ
وَإِنْ مَكَاناً فِي الثَّرَى خُطَّ لِحْدُهُ
لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

(١) يتدبران: يسيلان بالدموع.

أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزُّيَارَةِ وَالْهَوَى
فَهَلْ أَنْتُمَا إِنْ عُجْتُ مُتَّظِرَانِ
* * *

ماتت شريكة حياة محمود سامي البارودي، وهو منفي في سرنديب (جزيرة سيرلنكا)، فحُرم أولاده أباهم وأمهم معاً. واجتمع عليه بذلك أسي النفي، والفقد، وحرمان الأبناء، ممّن كانت أنسهم في غيبته وأمنهم وسعادتهم، ولم يلبث أن بثّ حسرته المتوقّدة وحرقة المتأجّجة في مرثية طويلة يقول فيها:

يَا دَهْرُ فِيمَ فَجَعْتَنِي بِحَلِيلَةٍ
كَانَتْ خُلَاصَةَ عُدَّتِي وَعَتَادِي
إِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَخَمْ ضَنَائِي لِيُعْدِيهَا
أَقْلًا رَحِمْتَ مِنَ الْأَسَى أَوْلَادِي
أَفَزَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنْمَنْ تَوَجُّعاً
فَرَحَى الْعَيْونِ رَوَاجِفَ الْأَكْبَادِ
يَبْكِينَ مِنْ وَلَكِ فِرَاقِ حَفِيَّةٍ
كَانَتْ لَهُنَّ كَثِيرَةَ الْإِسْعَادِ
فَخَذُوذُهُنَّ مِنَ الدَّمْعِ نَدِيَّةً
وَقَلُوبُهُنَّ مِنَ الْهُمُومِ صَوَادِي
* * *

كان مالك بن الرّيب في غزوة في خراسان، فحضرته المنية، فراح على نفسه قائلاً:

فِيَا صَاحِبِي رَخْلِي دَنَا الْمَوْتَ فَاحْفِرَا
بِرَابِيَةِ، إِنِّي مُقِيمٌ، لِيَالِيَا

وَخَطًّا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ مَضْجَعِي
 وَرُدًّا عَلَى عَيْنِي فَضْلَ رِدَائِيَا
 خُدَانِي، فَجُرَّانِي بِرُيِّ إِلَيْكُمَا
 وَقَدْ كُنْتُ، قَبْلَ الْيَوْمِ، صَعْبًا قِيَادِيَا
 تَفَقَّدْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ
 سِوَى السِّيفِ وَالرُّمْحِ الرَّدِّيِّ بَاكِيَا
 وَبِالرَّمْلِ مِنَّا نِسْوَةٌ لَوْ شَهِدْتَنِي
 بَكَّيْنٍ وَفَدَّيْنِ الطَّبِيبِ الْمُدَاوِيَا
 عَجُوزِي وَأَخْتَايَ اللَّتَانِ أُصِيبَتَا
 بَمَوْتِي وَبِنْتُ لِي تَهْجُ الْبَوَاكِيَا
 وَمَا كَانَ عَهْدُ الرَّمْلِ مِنِّي وَأَهْلِهِ
 ذَمِيمًا وَلَا بِالرَّمْلِ وَدَعْتُ قَالِيَا^(١)
 يَقُولُونَ: لَا تَبْعَدْ وَهُمْ يَدْفُنُونِي
 وَأَيِّنَ مَكَانَ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا

* * *

أوصى أبو العتاهية بأن يكتب على قبره هذه الأبيات الأربعة:

أُذُنٌ حَيٌّ تَسْمَعِي
 اسْمَعِي ثُمَّ عِي وَعِي
 أَنَا زَهْنٌ بِمَضْجَعِي
 فَاحْذَرِي مِثْلَ مَضْرَعِي

(١) القالي: المُبْعِضُ الكاره.

عِشْتُ تَسْعِينَ حِجَّةً
ثُمَّ وَافَيْتُ مِضْجَعِي
لَيْسَ شَيْءٌ سِوَى التُّقَى
فَأُخَذِي مِنْهُ أَوْ دَعَى

* * *



المقدمة ٥

من الرّثاء في العصر الجاهلي

٩ المهلهل
١٠ رثاء كليب
١٣ الخنساء
١٤ رثاء صخر
١٥ قذّي بعينك

من الرّثاء في العصر الإسلامي والأمويّ

٢١ متمّم بن نويرة
٢٣ حسان بن ثابت الأنصاري
٢٣ رثاء الرّسول
٢٧ جرير

٢٨	رثاء امرأته
٣٠	رثاء ابنه
٣٢	في رثاء معن بن زائدة

من الرثاء في العصر العباسي

٣٧	أبو تمام
٤٣	ابن الرومي
٤٤	رثاء ابنه الثالث
٤٤	رثاء ولده الأوسط
٤٩	الشريف الرضي
٥٣	أبو العلاء المعري
٥٩	المتنبي
٥٩	رثاء أم سيف الدولة
٧١	رثاء محمد بن بقرية
٧٥	علي بن محمد التهامي

من الرثاء في العصر الأندلسي

٨١	أبو البقاء الرندي
٨١	رثاء الأندلس

من الرثاء في العصر الحديث

٨٧	الياس أبو شبكة
٩١	مصطفى المنفلوطي
٩٥	صلاح لبكي
٩٩	الأخطل الصغير
١٠٩	حافظ إبراهيم

١٠٩	رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
١١٦	رثاء مصطفى كامل باشا
١٢١	شفيق المعلوف
١٢٥	الدكتورة مي سعادة
١٢٥	الذكريات التائهة
١٢٧	من قال غاب
١٢٨	أيلول ليس بقادم
١٣١	نزار قباني
١٣٩	جورج غانم
١٣٩	والدي
١٤١	نصبُ مدفني اغريقي في رودس
١٤٢	سلفادرو دالي - إلحاح الذاكرة - ١٩٣١

متفرقات رثائية

١٤٥	مرثية الأيام الحاضرة
١٤٧	رثاء تلميذة
١٤٩	متفرقات رثائية

سلسلة «اروع ما قيل»

- | | |
|------------------------------------|--------------------------------|
| أروع ما قيل في الوصف | أروع ما قيل في الاجتماعيات |
| أروع ما قيل في الوطنيات | أروع ما قيل في الإخترانيات |
| أروع ما قيل من الأدعية | أروع ما قيل في الحب والغزل |
| أروع ما قيل من أغان وأشعار للأطفال | أروع ما قيل في الحكمة |
| أروع ما قيل من الأمثال | أروع ما قيل في الخمرة ومجالسها |
| أروع ما قيل من الحكايات ٢/١ | أروع ما قيل في الرثاء |
| أروع ما قيل من الخطب | أروع ما قيل في الزهد والتصوف |
| أروع ما قيل من الرباعيات | أروع ما قيل في الزواج |
| أروع ما "كتب" من الرسائل | أروع ما قيل في الفخر والحماسة |
| أروع ما قيل من الطرائف | أروع ما قيل في المديح |
| أروع ما قيل من قصص العشاق ٢/١ | أروع ما قيل في المرأة |
| أروع ما قيل من الموشحات | أروع ما قيل في الموت |
| أروع ما قيل من النوادر | أروع ما قيل في الهجاء |
| أروع ما قيل من الوصايا | أروع ما قيل في الوجدانيات |